نموذج ترخيص

أنا الطالبة: هيا زايد مزيد المطيري أمنح الجامعة الأردنية و/ أو من تفوضه ترخيصاً غير حصري دون مقابل بنشر و / أو استعمال و / أو استغلال و / أو ترجمة و / أو تصوير و / أو إعادة إنتاج بأي طريقة كانت سواء ورقية و / أو إلكترونية أو غير ذلك رسالة الماجستير / الدكتوراه المقدمة من قبلي وعنوانها:

«التدافع في القرآن الكريم – دراسة موضوعية»

وذلك لغايات البحث العلمي و / أو التبادل مع المؤسسات التعليمية والجامعات و / أو لأي غاية أخرى تراها الجامعة الأردنية مناسبة، وأمنح الجامعة الحق بالترخيص للغير بجميع أو بعض ما رخصته لها.

اسم الطالبة: هيا زايد مزيد المطيري

التوقيع: هيا

التاريخ: ٢٠١٥/٨/١٢

التدافع في القرآن الكريم

"دراسة موضوعية"

إعداد

هيا زايد مزيد المطيري

المشرف

الدكتور جهاد محمد فيصل النصيرات

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التفسير

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع ... التاريخ 2015/8/2

تموز/2015

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة بعنوان "**التدافع في القرآن الكريم دراسة موضوعية**" وأجيزت بتاريخ : 27 / 7 / 2015م .

أعضاء لجنة المناقشة	**التوقيع**
الدكتور جهاد محمد النصيرات/ مشرفاً استاذ مشارك – التفسير	.....
الدكتور محمد مجلي الربابعة/ عضواً استاذ مساعد – التفسير	.....
الدكتور عبدالله أحمد الزيوت/ عضواً استاذ مساعد – التفسير	.....
الدكتور أحمد سليمان البشايرة / عضواً خارجياً استاذ دكتور– التفسيروعلوم القرآن – جامعة العلوم الإسلامية العالمية	.....

تعتمد عمادة الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع ..... التاريخ .....

الإهـــــداء

إلى أمي الحبيبة (أطال الله في عمرها) إلى روح أبي الغالي (رحمه الله)،،،

إلى زوجي وأبنائي الذين كانوا خير معين لي في مسيرتي لطلب العلم ،،،

إلى الأمة التي أنتمي إليها وأطمح أن تكون رائدة في مقدمة الأمم،،،

أهدي هذا العمل المتواضع

جعله الله حجة لي لا حجة علي وتقبله قبولا حسنا

شكـــر وتقـــدير

بعد شكر الله – عز وجل – وحمده ، والثناء على جميل أفضاله ، بأن امتن علي باختياري لطلب العلم الشرعي، وشرفني بدراسة أعظم كتاب تنزل على البشرية جمعاء .

يسرني أن أتقدم بالشكر والامتنان إلى أساتذتي في الجامعة الأردنية / كلية الشريعة ، والذين تشرفت بالتتلمذ على أيديهم .

وأقدم شكري وعظيم امتناني لأستاذي الكريم الدكتور جهاد النصيرات، على ما بذل من جهد و وقت، وما قدم من توجيهات قيمة في هذا البحث، جزاه الله عني خير الجزاء.

و يسرني أن أتقدم بالشكر والعرفان لأعضاء لجنة المناقشة الأفاضل، ا.د. أحمد البشايرة ، د. محمد الربابعة ، د. عبدالله الزيوت ، والذين تكرموا بمناقشة هذه الرسالة وإثرائها بتوجيهاتهم القيمة .

و أتقدم أيضا بالشكر لكل من كان عونا لي في إعداد هذا البحث، وإن كانت بدعوة في ظهر الغيب.

فهرس الموضوعات

المحتوى	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وتقدير	د
فهرس المحتويات	هـ
الملخص باللغة العربية	ح
المقدمة	1
أسباب اختيار الموضوع	1
مشكلة الدراسة	1
أهمية الدراسة	2
أهداف الدراسة	3
الدراسات السابقة	4
طريقة البحث ومنهجه	8
خطة البحث	9
التمهيد	
أولا: مفهوم التدافع لغة واصطلاحاً	13
ثانيا: أهمية دراسة التدافع	17
الفصل الأول **حقيقة التدافع في القرآن الكريم وثمراته**	
المبحث الأول: حقيقة التدافع	21
المطلب الأول: الدفع غريزة وسلوك	21
المطلب الثاني: الدفع سنة إلهية	26

المطلب الثالث: المفهوم القرآني للتدافع	**31**
المبحث الثاني: ثمرات التدافع	**39**
المطلب الأول: رفع راية التوحيد	**39**
المطلب الثاني: حفظ الأرض من الفساد ورفع المظالم	**44**
المطلب الثالث: تحقيق الأمن والنفع لجميع الأديان والطوائف	**47**
المطلب الرابع: الاستخلاف والتمكين	**51**
المطلب الخامس: تمييز المؤمنين وتمحيص الصادقين واصطفاءالشهداء	**59**
الفصل الثاني **قواعد التدافع من خلال القرآن الكريم**	
المبحث الأول: قواعد تتعلق بالتدافع بين الحق والباطل	**67**
المطلب الأول: حتمية التدافع بين الحق والباطل	**67**
المطلب الثاني: استمرارية سعي الباطل في دفع الحق	**70**
المطلب الثالث: عدم ارتباط التدافع بقلة أو كثرة	**72**
المطلب الرابع: مقابلة المكر بالمكر	**76**
المبحث الثاني: قواعد تتعلق بالحق وأهله	**80**
المطلب الأول: قوة الحق لذاته وضعف الباطل لذاته	**80**
المطلب الثاني: العاقبة للحق والغلبة لأهله	**84**
المطلب الثالث: الثبات عند النّزال واليقين بالنصر	**88**
المطلب الرابع: بث التفاؤل ونبذ روح الانهزامية	**91**
المطلب الخامس: محاسبة النفس والاعتبار من مصير الأمم السابقة	**94**
المبحث الثالث: قواعد تتعلق بالباطل وأهله	**98**
المطلب الأول: رعاية أكابر القوم للباطل	**98**
المطلب الثاني: تعاضد أهل الباطل باختلاف مشاربهم ومعتقداتهم	**101**

المطلب الثالث: تزيين أهل الباطل لباطلهم وتشويه الحق	**103**
المطلب الرابع: الإرجاف بأهل الحق لإضعاف عزيمتهم	**105**
الفصل الثالث **وسائل الدفع في القرآن الكريم**	
المبحث الأول: الدفع بالتأييد الإلهي	**111**
المطلب الأول: الدفع بصرف كيد أهل الباطل وتثبيت أهل الحق	**111**
المطلب الثاني: الدفع بالعذاب الدنيوي واستئصال أهل الباطل	**119**
المبحث الثاني : الدفع بمباشرة أهل الحق لأسبابه	**123**
المطلب الأول : الدفع بالبيان	**125**
المطلب الثاني: الدفع بالسنان	**132**
الخاتمة	**137**
قائمة المصادر والمراجع	**141**
الملخص باللغة الانجليزية	**154**

التدافع في القرآن الكريم

"دراسة موضوعية"

إعداد

هيا زايد مزيد المطيري

المشرف

الدكتور جهاد محمد فيصل النصيرات

ملخص

تتناول هذه الرسالة التدافع في القرآن الكريم اعتمادا على أصول الدراسة الموضوعية، وقد هدفت الدراسة إلى دراسة حقيقة التدافع في القرآن الكريم، لاستنتاج ثمراته ووسائله وقواعده ، إذ تتلخص مشكلة الدراسة في الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي: ما حقيقة التدافع من منظور القرآن الكريم ؟ لذا اشتملت الرسالة على تمهيد وثلاثة فصول، تطرقت في التمهيد إلى مفهوم التدافع، ثم ذكرت أهمية دراسة التدافع، و وجوب العمل به؛ فهو مطلب شرعي لإصلاح الأمة وعمارة الأرض.

وعرضت في الفصل الأول حقيقة التدافع من حيث كونه غريزة وسلوكا أودعه الله –عز وجل– في جميع مخلوقاته لسلامتها من الضرر، وسنة إلهية ينبغي فهمها والعمل وفقها بما يعود على الأمة بالنفع ، ثم عرضت للمفهوم القرآني للتدافع، والذي يخالف مفاهيم الأمم الأخرى ، وختمت بثمرات التدافع بين أهل الحق وأهل الباطل .

وتناولت في الفصل الثاني قواعد التدافع من خلال القرآن الكريم على ثلاثة أقسام؛ قواعد التدافع بين الحق والباطل، ثم القواعد التي تتعلق بالحق وأهله، وختمتها بالقواعد التي تتعلق بالباطل وأهله، وهي قواعد تؤصل وتفسر طبيعة الصراع بين الحق والباطل وأتباع كلٍ منهما، وفي الفصل الثالث والأخير عرضت وسائل الدفع التي جاءت في القرآن الكريم ، على قسمين ؛

الدفع بالتأييد الإلهي، والدفع بمباشرة أهل الحق لأسبابه وبينت صور كلٍ منهما.

ثم خلصت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج والتوصيات التي توصلت إليها الباحثة، وأبرزها أن التدافع نتيجة طبيعية لاجتماع البشر واختلاف المصالح والطبائع، بل هو مظهر من مظاهر الحياة فلا يتوقف إلا بتوقفها، وإن الإسلام يؤصل في عملية التدافع لصراع تتطلبه المصالح وتحكمه القيم وتنظمه الشريعة ، واستخلاص القواعد المهمة والمؤثرة في عملية الدفع ومقاومة الباطل، والتي تعين على فهم أبعاد هذه العملية وعلاقة تحقيق النصر بها، لتكوين صورة واضحة عن قواعد هذا الصراع لدى أهل الحق في دفعهم للباطل .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد.

- أسباب اختيار الموضوع:

نظرا لما تمر به الأمة الإسلامية من تعثر وتكالب الأمم عليها، ومسارعة أهل الباطل لمحاربة الحق وأهله ، حتى تسرب اليأس من ظهور هذه الأمة على غيرها من الأمم في نفوس بعض أبنائها ، ومن تمكنهم من دفع الباطل والتغلب عليه ، واستكان البعض لهذا الهوان وتأقلم معه ، واستسلم له دون الرغبة لإعادة النظر في ذلك ، وفاتهم أن الخلل ليس في وعد الله بالدفع ونصر أهل الحق ، وإنما لتقصير أهل الحق بفهم نواميس النصر و قواعد المدافعة ومغالبة أهل الباطل ، فلا بد من فهم وتفسير الأحداث والواقع المحيط بالأمة ، وطبيعة الصراع بين الحق والباطل ، بحسب السنن الإلهية كما وردت في القرآن الكريم ، مما دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع المهم ، لتوضيح المفهوم الصحيح للتدافع كما فهمه الجيل الأول فهماً صحيحاً نابعاً من القرآن الكريم، فسادوا الأمم، وفتحوا الأمصار، ونشروا الحق .

- مشكلة الدراسة :

تتلخص مشكلة الدراسة في البحث عن كيفية فهم حقيقة التدافع بين أهل الحق والباطل ، وطبيعة الصراع بينهما، وبيان منهجية القرآن الكريم في توضيح ذلك، مع بيان الحقائق القرآنية عن التدافع ، واستخلاص الدروس والتوجيهات منها، لتقديم رؤية واضحة – حسب اجتهادي – لكل أفراد هذه الأمة لتصحيح المسار، وللنهوض من كبوتنا وفق هذا المنهج القرآني .

و لهذا فقد جاءت هذه الدراسة لتجيب عن السؤال المحوري الآتي: ما المفهوم القرآني للتدافع بين أهل الحق وأهل الباطل ؟ ويتفرع من ذلك عدد من الأسئلة التفصيلية، التي اجتهدت في بيانها، والإجابة عنها وهي كالآتي:

1- ما حقيقة التدافع في القرآن الكريم؟ وماهي ثمراته ؟

2- ماهي قواعد التدافع التي أشار إليها القرآن الكريم؟

3- ما وسائل التدافع في القرآن الكريم ؟

- **أهمية الدراسة:**

بعد العرض السابق لمشكلة الدراسة، واستشعارا مني بأهمية القيام بواجبي نحو خدمة كتاب الله –عز وجل– عن طريق استخلاص الدروس والتوجيهات التي من شأنها أن تنتفع بها الأمة ، للقيام بحق هذا الدين العظيم، وأداء الأمانة التي كلفنا الله – عز وجل – بها ، لذا فإني أوجز أهمية الدراسة في النقاط الآتية :

1- أهمية دراسة المسلمين لطبيعة التدافع بين الحق والباطل، وفهمه فهما صحيحا نابعا من القرآن الكريم، والسير على منهج التدافع القرآني، فهو المخرج للأمة من تخلفها عن الركب وتكالب الأمم عليها.

2- حاجة المسلمين لاستيعاب أسباب النصر والغلبة والهزيمة، وفهم ارتباطها بالسنن الإلهية التي لها قوانين لا تحابي أحدا، ويخضع الجميع لها، ففي الغفلة عنها تفريط بنصر الأمة، ودفعها لأعدائها الذين يتربصون بها وبدينها وعقيدتها.

3- ضرورة فهم المسلمين أن دفع أعداء الحق والتغلب عليهم، ليس بمعجزة خارقة للعادة أو هبة من الله تتنزل عليهم دون الأخذ بالأسباب، فقد حرص الأنبياء –عليهم السلام– على

فهم حقيقة التدافع والتزام قواعده ، التي تعين على مدافعة أهل الباطل، ولنا بهم أسوة حسنة.

4- حاجة الأمة للرجوع إلى كتاب الله – عز وجل– لقراءة واقع الأمة الإسلامية ، وما يحيط بها من أحداث أضعفتها، والنهوض بها من عثرتها وعلاج مواطن ضعفها، وتعزيز مواطن قوتها ، فالقرآن لا ينفك أو ينفصل عن الواقع وتفاصيله ، لأنه منهج حياة اهتم بتوجيه المسلمين في كافة الظروف والأوقات، وفي كل ما ينفعهم ، وبانصرافهم عنه كان السبب وراء تخلفهم وانهزامهم ، وتكالب الأمم عليهم ، فمدافعة الباطل وانهزامه لا تكون بعيداً عن اتباع منهج القرآن الكريم.

5- حاجة الدراسات القرآنية التخصصية الموضوعية لدراسة حقيقة التدافع بين أهل الحق والباطل.

6- الإسهام في تقديم دراسة تدعم مشاريع استنهاض الأمة، تفيد المهتمين بذلك والساعين له ولعامة أفراد الأمة.

- **أهداف الدراسة:**

بعد أن وقع اختياري على موضوع الرسالة للأسباب التي ذكرتها، جعلت من أهدافي في هذه الدراسة توضيح النقاط الآتية:

1- دراسة حقيقة التدافع في القرآن الكريم واستنتاج ثمراته.

2- استنتاج قواعد التدافع من القرآن الكريم ، كقواعد التدافع بين الحق والباطل بشكل عام ، أو مايتعلق بالحق وأهله أو بالباطل وأهله بشكل خاص .

3- استنتاج وسائل التدافع في القرآن الكريم.

- **الدراسات السابقة:**

بعد البحث في قواعد البيانات للدراسات القرآنية وصفحات الإنترنت ، وجدت الآتي:

1- يوجد مقالات عن الموضوع ، ومن المعروف أنها تكون مختصرة وموجزة، فقد تناولت بعض الجزئيات في الدراسة .

2- الرسائل العلمية التي تناولت موضوع الدراسة كالآتي:

- **(الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف)** الباحث :عادل أبو العلا، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى، عام 1409هـ : ويتضح من العنوان أن الدراسة محددة بسورة الأعراف فقط ، والتعرض لما ورد فيها من صراع الأنبياء مع أقوامهم ، بينما غطت دراستي جميع الآيات القرآنية ذات العلاقة، وتوسعت بالبحث من أجل استنتاج حقيقة التدافع وثمراته وقواعده ووسائله.

- **(سنة التدافع في ضوء القرآن الكريم)** للباحث: خالد الزهراني، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى ، عام 1428هـ: جاءت الدراسة في مقدمة وبابين وخاتمة ، على النحو الآتي :

الباب الأول: تناول الباحث المسائل التالية: السنن الإلهية مفهومها وأهميتها وخصائصها و أنواعها، و قسمها لسنن عامة، من ضمنها سنة التدافع، وسنن خاصة. و جاء في **الباب الثاني** : سنة التدافع فبين فيها المسائل التالية:

<u>الفصل الأول:</u> تعريف التدافع لغة واصطلاحا ومرادفاته ومقابلاته في القرآن الكريم.

<u>الفصل الثاني:</u> مظاهر التدافع وهي : تدافع الإيمان والكفر، تدافع الخير والشر، تدافع السراء والضراء، تدافع الليل والنهار.

الفصل الثالث: حديث القرآن عن سنة التدافع : فأورد الآيات الواردة حول ذلك في مبحث تحت ثمانية صور هي : التدافع مع الشيطان ، دفع السيئة بالحسنة ، دفع الله عن أوليائه ،مدافعة الكافرين ، القتال ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مدافعة النوازع ، الجهاد ، ثم تناول في المباحث التالية ؛ دراسة أسلوب القرآن وخصائصه في عرض سنة التدافع ، والدروس المستفادة من أسلوب القرآن في عرض هذه السنة .

الفصل الرابع: موقف الناس من سنة التدافع: المؤمنون /الكافرون / المنافقون/ الغافلون.

الفصل الخامس: بيان حكم التدافع وآثاره على مستوى الفرد والأمة والكون.

وبالمقارنة بين ما تضمنت الدراسة السابقة ، وما جاء في المحاور التي تناولتها في هذه الدراسة ، يمكنني توضيح الفروق، وما تميزت به عن السابقة على النحو الآتي:

1- غطت الدراسة السابقة السنن الإلهية بالتفصيل ، وتوسعت في فصول تتدرج تحت باب كامل، بينما في هذه الدراسة تطرقت إليها بإيجاز، بمطالب في التمهيد مدخلا للرسالة ومرتكزا لها ، وكذلك مطلب في الفصل الأول من الرسالة ، لبيان حقيقة التدافع من حيث كونه سنة اجتماعية إلهية، ليستوعب القارئ ما سيندرج تحت الفصول فيما بعد.

2- كانت الدراسة السابقة عامة في سنة التدافع، وبينت أن له أربعة مظاهر، وهي التدافع بين:الإيمان والكفر، الخير والشر، السراء والضراء، والليل النهار، وجاء كل مظهر منها في مبحث لا يزيد عن أربعة صفحات للتعريف بها، أما في هذه الدراسة فقد خصصت للتدافع بين الحق والباطل، وركزت عليها دون غيرها من المظاهر وتوسعت بها.

3- حصرت الدراسة السابقة في مبحث واحد (حديث القرآن عن سنة التدافع)، وحشد فيها الآيات الواردة في سنة التدافع ، ثم جاء في المبحثين التاليين أسلوب القرآن في عرضها، فقد توسعت في بيان السنن الإلهية في باب كامل ، بالرغم من استفاضة بيانها في دراسات

سابقة ، أما ما يتعلق بآيات سنة التدافع ، فقد جاءت في مبحث، وكانت الأولى بالبيان في فصول البحث؛ لأنها من صميم الدراسة وصلب الموضوع ، بينما في هذه الدراسة استغرقت وغطت جميع فصولها ومباحثها، بحسب ما تبين لي من حقائق فيما يتعلق بالتدافع والصراع بين أهل الحق والباطل ، فقمت بجمع الآيات التي تندرج تحت كل مبحث، لتأخذ حقها في البيان بالرجوع لأقوال المفسرين والعلماء فيها، والاستنتاج على ضوء ذلك .

4- ذكرت الدراسة السابقة آثار التدافع على مستوى الفرد والأمة والكون ، على شكل نقاط دون ذكر للآيات التي أشارت إليها ، بينما في هذه الدراسة حرصت على استنباط ثمرات التدافع على ضوء الآيات الواردة بهذا الشأن، وأقوال المفسرين في تفسير هذه الآيات.

5- ذكرت الدراسة السابقة وسائل للتدافع ، تحت مبحث بعنوان صور التدافع ، في فصل حديث القرآن عن سنة التدافع ، بينما في هذه الدراسة خصصت فصلا لوسائل التدافع نظرا لأهميتها كمحصلة نختم بها الدراسة ، وذكرت أنواع التدافع ، وصور تندرج تحت كل نوع .

6- تناولت هذه الدراسة جوانب أغفلتها الدراسة السابقة عن الموضوع مثل: حقيقة التدافع من حيث كونه غريزة وسلوكا، والمفهوم القرآني للتدافع ، قواعد عامة لاستيعاب وفهم طبيعة التدافع بين الحق والباطل ، وقواعد خاصة تتعلق بالحق وأهله و الباطل وأهله.

- **(سنة التدافع بين الحق والباطل في القرآن الكريم)** للباحث: طالب محمد عبدالقادر الصرايرة، رسالة دكتوراة ، جامعة دمشق ، عام: 1427هـ / 2006م: اشتملت الدراسة على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة، أوجزها على النحو الآتي :

<u>الباب الأول:</u> المفاهيم المتعلقة بسنة التدافع ، وفيه ثلاثة فصول:**الأول:** مفهوم السنن الإلهية لغة واصطلاحا والآيات التي وردت فيها لفظ السنة، وأقسام السنن وأنواعها وخصائصها وأسلوب القرآن

في التعبير عن السنن ، **الثاني** :مفهوم التدافع، فقد ذكر الآيات الواردة في التدافع، والاستخلاف في الأرض، وحقيقة التدافع وحتمية الصراع ، **الثالث:** مفهوم الحق والباطل لغة واصطلاحا.

الباب الثاني: التدافع بين الحق والباطل في القرآن الكريم، وفيه خمسة فصول: **الأول:** استعمالات الحق والباطل في القرآن ونماذج للتدافع، **الثاني:** موقف البشر تحت سلطان التدافع في القرآن الكريم وهم : المؤمنون، الكافرون ،المنافقون ،**الثالث** :الدوافع النفسية للتدافع بين الحق والباطل وهي: الحسد ، الكبر ، العلو، **الرابع** : آلات التدافع بين الحق والباطل وهي: القلب ،العقل، السمع ،البصر، **الخامس:** أشكال التدافع بين الحق والباطل :الحوار ، الجهاد.

الباب الثالث: عاقبة التدافع بين الحق والباطل، وفيه فصلان :**الأول:** النصر وأسبابه، **الثاني:** الاستبدال الحضاري وفيه: الاستخلاف الحضاري للحق، الهلاك الحضاري للباطل.

وبالمقارنة بين ما جاء في الدراستين، يمكنني توضيح الفروق، وما أضافت هذه الدراسة على النحو الآتي:

1- خصصت الدراسة السابقة فصلا كاملا للحديث عن السنن تعريفها وآياتها وأقسامها؛ سنن كونية وتشريعية وتاريخية، والأنواع التي تندرج تحت كل قسم، بينما في هذه الدراسة ركزت على حقيقة التدافع في فصل، متضمنا مباحث لبيان حقيقته، والتطرق بأحد المباحث لكونه سنة الهية دون بقية السنن الأخرى، بالإضافة إلى الحديث عنه باعتباره غريزة وسلوكا في النفس الإنسانية ، وبيان المفهوم القرآني الذي يختلف عن مفاهيم الأمم الأخرى ، وهو ما لم تتطرق له الدراسة السابقة.

2- جمعت هذه الدراسة قواعد التدافع لفهم طبيعة الصراع بين الحق والباطل في فصل، وعلى ثلاثة مطالب تبعا للأقسام التالية : قواعد التدافع بين الحق والباطل على وجه العموم، ثم

قواعد تتعلق بالحق وأهله، ثم قواعد تتعلق بالباطل وأهله، وهو غير مسبوق في الدراسة السابقة .

3- عددت هذه الدراسة خمس نتائج وثمرات التدافع في مبحث، في حين ذكرت الدراسة السابقة في باب عاقبة التدافع: النصر، الاستبدال الحضاري.

4- اقتصرت الدراسة السابقة على وسيلتين من وسائل الدفع بمباشرة الأسباب، وهي الحوار والجهاد، بينما أضافت هذه الدراسة الدفع بواسطة التأييد الإلهي عن طريق الاستئصال بالعذاب الدنيوي، وصرف كيد أهل الباطل عن أوليائه.

- **(مفهوم التدافع في القرآن الكريم والحديث الشريف .. دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي)** للباحثة : فاطمة عبدالخالق ، رسالة دكتوراة ، كلية الآداب ، جامعة ظهر مهراز، فاس ، سنة 1998م، وهي رسالة لم أتمكن من الوصول إليها للإطلاع على ما جاء فيها .

- **طريقة البحث ومنهجه:**

سلكت في الدراسة المنهج الاستقرائي والتحليلي والاستنتاجي، فقمت بجمع الآيات القرآنية ذات العلاقة وتحليلها واستنتاج ما تشير إليه، بالرجوع إلى كتب التفسير وأقوال المفسرين، ثم الاعتماد على السنة النبوية من الصحيحين ، ثم بقية كتب الحديث المعتمدة ، والرجوع إلى المصادر العلمية المتنوعة التي من شأنها أن تثري الدراسة .

- **خطة البحث:**

اقتضت طبيعة البحث أن أجعله في: مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، وقد جاءت الخطة على النحو الآتي:

- **<u>المقدمة:</u>** وتتضمن أهمية الموضوع وأهدافه وسبب اختياري له، ومشكلة الدراسة ونقد الدراسات السابقة، مع بيان خطتي في الدراسة.
- **<u>التمهيد</u>:**
  - **أولا:** مفهوم التدافع لغة واصطلاحاً.
  - **ثانيا** : أهمية دراسة التدافع.

<u>الفصل الأول: حقيقة التدافع في القرآن الكريم وثمراته</u>

- **<u>المبحث الأول: حقيقة التدافع:</u>**

المطلب الأول: الدفع غريزة وسلوك.

المطلب الثاني: الدفع سنة إلهية.

المطلب الثالث: المفهوم القرآني للتدافع.

- **<u>المبحث الثاني: ثمرات التدافع:</u>**

المطلب الأول: رفع راية التوحيد .

المطلب الثاني: حفظ الأرض من الفساد ورفع المظالم.

المطلب الثالث: تحقيق الأمن والنفع لجميع الأديان والطوائف.

المطلب الرابع: الاستخلاف والتمكين.

المطلب الخامس: تمييز المؤمنين وتمحيص الصادقين واصطفاءالشهداء.

الفصل الثاني: قواعد التدافع من خلال القرآن الكريم

- **المبحث الأول: قواعد تتعلق بالتدافع بين الحق والباطل:**

المطلب الأول: حتمية التدافع بين الحق والباطل.

المطلب الثاني: استمرارية سعي الباطل في دفع الحق.

المطلب الثالث: عدم ارتباط التدافع بقلة أو كثرة.

المطلب الرابع: مقابلة المكر بالمكر.

- **المبحث الثاني: قواعد تتعلق بالحق وأهله:**

المطلب الأول: قوة الحق لذاته وضعف الباطل لذاته.

المطلب الثاني: العاقبة للحق والغلبة لأهله.

المطلب الثالث: الثبات عند النّزال واليقين بالنصر.

المطلب الرابع: بث التفاؤل ونبذ روح الانهزامية.

المطلب الخامس: محاسبة النفس والاعتبار من مصير الأمم السابقة.

- **المبحث الثالث: قواعد تتعلق بالباطل وأهله:**

المطلب الأول: رعاية أكابر القوم للباطل.

المطلب الثاني: تعاضد أهل الباطل باختلاف مشاربهم ومعتقداتهم.

المطلب الثالث: تزيين أهل الباطل لباطلهم وتشويه الحق.

المطلب الرابع: الإرجاف بأهل الحق لإضعاف عزيمتهم.

الفصل الثالث: وسائل الدفع في القرآن الكريم

- **المبحث الأول: الدفع بالتأييد الإلهي :**

المطلب الأول: الدفع بصرف كيد أهل الباطل وتثبيت أهل الحق .

المطلب الثاني: الدفع بالعذاب الدنيوي واستئصال أهل الباطل .

- **<u>المبحث الثاني : الدفع بمباشرة أهل الحق لأسبابه :</u>**

المطلب الأول : الدفع بالبيان .

المطلب الثاني: الدفع بالسنان .

- **<u>الخاتمة:</u>** وتضمنت أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها.

وختاما أسأل الله أن يسددني ويلهمني الصواب ، ويتقبل عملي ويجعله خالصا لوجهه الكريم، وما كان صواباً فمن الله تعالى وحده، وما كان خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، والله المستعان .

التمهيد

- **ويشتمل على :**

أولا: مفهوم التدافع لغة واصطلاحا.

ثانيا: أهمية دراسة التدافع.

أولا: مفهوم التدافع لغة و اصطلاحا:

- **التدافع لغة :**

"التدافع" مصدر على وزن تفاعل ، والجذر الثلاثي للكلمة هو "دفع"، ولها معانٍ في اللغة على النحو الآتي:

- قال الخليل ابن احمد:" دفع: دَفَعْتُ عنه كذا وكذا دفعاً ومدفعاً؛ أي: مَنَعْتُ"[1].
- قال ابن فارس : "الدال والفاء والعين أصل واحد مشهور، يدل على تنحية الشيء يقال دفعت الشيء أدفعه دفعا "[2].
- قال ابن سيده :" الدفع الإزالة بقوة دفعه يدفعه دفعا ودفعه ودافعه مدافعة ودفاعا فاندفع وتدفع وتدافع ودفعت الأمر أدفع دفعا أزلته"[3].
- قال أبو البقاء الكفوي:" الدفع: هو صرف الشيء قبل الورود، كما أن الرفع صرف الشيء بعد وروده"[4].

---

[1] الفراهيدي ، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (ت 170هـ)، العين ، (المحقق: مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي)، دار ومكتبة الهلال ، 45/2.

[2] ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي(ت 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، (المحقق: عبد السلام محمد هارون) دار الفكر، 1399هـ - 1979م ، 288/2.

[3] ابن سيده ، علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت 458هـ)، المخصص ، (المحقق: خليل إبراهم جفال) ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، الطبعة الأولى، 1417هـ / 1996م ، 66/2.

[4] أبو البقاء، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت 1094هـ)، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، (المحقق:عدنان درويش- محمد المصري)، مؤسسة الرسالة – بيروت، 450/1، وانظر المعنى اللغوي "دفع ": الجوهري ، إسماعيل ، الصحاح 1208/3 ، ابن منظور، محمد ، لسان العرب 87/8، الفيروز آبادي، محمد ، القاموس المحيط 715/1، الزبيدي، محمد، تاج العروس 553/20 ، مؤلفون، المعجم الوسيط 289/1.

يتضح مما سبق أن هذه المعاني تدور حول مضمون واحد وهو الحرص على الإزالة والتنحية والمزاحمة، ولا تختلف فيما بينها عند هؤلاء العلماء، لأن المنع الذي أشار إليه الخليل بن أحمد يلتقي مع معنى التنحية عند ابن فارس، فالتنحية ما هي إلا صورة من صور هذا المنع، وكذلك الإزالة التي ذكرها ابن سيده ليست إلا نتيجة لهذه التنحية والمنع ، وكذلك الصرف عند الكفوي.

وللراغب الأصفهاني تعريف لمعنى كلمة دفع ، بحسب حالات تعديتها بحروف الجر حيث قال: " الدفع إذا عدي بإلى اقتضى معنى الإنالة ، نحو قوله تعالى: ﴿ فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾ [النساء: 6] ، وإذا عدي بعن اقتضى معنى الحماية، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾[الحج: 38] "[1]، هذان المعنيان اللذان أوردهما الراغب الأصفهاني ، وهو الرجل الألمعي الخبير في اللغة القرآنية ، والذي تتبع ورود هذه الكلمة في القرآن الكريم ، وحالات تعديتها بحروف الجر، وتبين له أن هذا الدفع إذا عدي بـ(إلى) كان فيه معنى الإنالة التي هي نقيض المنع ، وإذا عدي بـ(عن) اقتضى معنى الحماية ، وليس هذا من اختلاف معاني مادة "دفع" التي أوردها وهي الحماية والمنع ، وإنما هو متعلق بالتراكيب القرآنية في استعمال هذه الحروف ، التي تعد مظهراً مهماً من مظاهر الإعجاز القرآني.

---

[1] الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف (ت 502هـ)، المفردات في غريب القرآن، (المحقق: صفوان عدنان الداودي) دار القلم، الدار الشامية – دمشق– بيروت، الطبعة الأولى، 1412 هـ ، 316/1.

- **التدافع اصطلاحا:**

عرف المفسرون المتقدمون المراد بالدفع والتدافع ، كالزمخشري فقد ذكر بأن المراد بدفع الله بعض الناس ببعض هو:" إظهاره وتسليطه المسلمين منهم على الكافرين بالمجاهدة"[1] ، وقال ابن الجوزي: " يدفع عن الذين آمنوا غائلة المشركين بمنعهم منهم ونصرهم عليهم"[2] .

بينما نجد في بعض الدراسات المتأخرة جملة من التعريفات لمفهوم التدافع ، فقد ذكر محمد رشيد رضا في تفسير قوله تعالى:﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة:251] ، تعريفا للتدافع بأنه تنازع البقاء ، ولا يختص بالحرب والقتال فقط ، بل هو عام لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس الذي يقتضي المدافعة والمغالبة[3] ، وقال ابن عاشور: " أصل معنى الدفع الضرب باليد للإقصاء عن المرام ، قال: فدفعتها فتدافعت وهو ذب عن مصلحة الدافع" [4] ، و قال الدكتور عبدالكريم زيدان: " نريد بالتدافع بين الحق والباطل تنحية أحدهما للآخر، أو إزالته ومحوه بالقوة عند الاقتضاء " [5] ، وذكر الدكتور الخطيب مفهوم التدافع اصطلاحا هو:" الصراع والقتال بين الناس، بين الخير والشر، بين الحق والباطل ، بين أمة وأمة " [6] ، كما عرف الباحث خالد

---

[1] الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، (ت 538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربي – بيروت، 1407 هـ ، 160/3.

[2] الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597هـ)، زاد المسير في علم التفسير، (المحقق: عبد الرزاق المهدي)، دار الكتاب العربي، بيروت ، الطبعة الأولى، 1422 هـ ، 240/3.

[3] انظر: رضا ، محمد رشيد بن علي (ت1354هـ)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1990 م، 2/ 394.

[4] ابن عاشور ، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر،(ت1393هـ) ، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» الدار التونسية للنشر، تونس، 1984 هـ ، 503/2.

[5] زيدان، عبدالكريم(1434هـ/ 2013م)، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، الطبعة الثالثة ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ، ص 45.

[6] الخطيب ، شريف الشيخ صالح أحمد(1425هـ/2004م)، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، ، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ، 170/2.

الزهراني أن التدافع هو: " ظاهرة كونية إلهية ، تنشأ من احتكاك المتدافعين ، إما بسبب اختلاف التصورات أو الطباع بدرجات متفاوتة من القوة "[1].

يتبيّن من هذه التعريفات أنه ليس هناك اتفاق تام على ضبط هذا المصطلح، فبعضهم قصره على القتال، ومنهم من حدده بالتنحية والإزالة ، ومنهم من اقتصر على تعريفه بظاهرة كونية، بينما البعض الآخر عرفه على أنه سنة إلهية، وترى الباحثة بعد الإفادة مما تقدم أن تضع تعريفاً وهو: " صراع بين فريق الحق وبين فريق الباطل ، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات أو الدول ، وبكافة الوسائل المتاحة ، لتحقيق رغبات الغالب منهما وإرساء قوانينه " ، وعلى رأس هذه الوسائل وفي مقدمتها العسكرية ، ثم السياسية والعلمية والإعلامية والاقتصادية وغيرها من الوسائل ، فيبذل كل فريق أقصى مالديه لإقصاء وإضعاف الآخر والإجهاز عليه ، لتكون له الصدارة والقوة والقيادة والسيطرة ، ويهدف أهل الحق من ذلك الدفع إعلاء كلمة الله ، وحفظ الأرض من المفاسد ورفع المظالم ، بعكس أهل الباطل الذين يسعون لإلغاء الآخرين واستعبادهم ومصادرة حقوقهم .

ومما ينبغي الإشارة إليه أن كلمة التدافع لم ترد في القرآن الكريم ، والأصل كلمة دفع في قوله تعالى :﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة:251] ، أو دفاع كما جاءت في قراءة نافع [2]، وإنما التدافع لفظة اشتهرت في الدراسات القرآنية ، ومن أطلق عليه تدافعاً فإنه –مع حسن نيته– لا يصح أن يضاف التدافع إلى الله ، لما يعنيه من العبث ، والفوضى التي لا تليق بالله تعالى.

---

[1] الزهراني، خالد بن موسى بن غرم الله الحسني، سنة التدافع في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية، رسالة ماجستير من جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، 1428هـ/2007م ، ص83.

[2] ابن مجاهد، ، أحمد بن موسى بن العباس التميمي، (ت 324هـ)، السبعة في القراءات ، (المحقق: شوقي ضيف) دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية ، 1400هـ ، ص 187.

ثانيا: أهمية دراسة التدافع:

يمكن الوقوف على أهمية دراسة التدافع من خلال مايلي:

1- بدفع وإزهاق الباطل تأمين لطريق الدعوة إلى الله ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، قال السعدي – رحمه الله – :" فلولا مدافعة الله الناس بعضهم ببعض بأسباب متعددة، وطرق متنوعة قدرية وشرعية، وأعظمها وأجلها وأزكاها الجهاد في سبيله، لاستولى الكفار الظالمون، ومحقوا أديان الرسل، فقتلوا المؤمنين بهم، وهدموا معابدهم" [1] .

2- السير على منهج أنبياء الله في دافع الباطل وأهله لإرساء دعائم الحق وتثبيته ، وهي المهمة التي من أجلها أرسلهم الله عز وجل لتبليغ الرسالة ، وتحطيم الموانع التي تقف دون انتشارها، كما سار عليه الصدر الأول في الإسلام ، فسادوا الأمم عندما تشربت قلوبهم توجيهات القرآن الكريم في مدافعة الباطل ، إن" الذين يطمعون في الإصلاح ودرء الفساد عن الأمة بدون هذه السنة – أعني سنة المدافعة مع الباطل وأهل الفساد – إنهم يتنكبون منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله عز وجل الذي ارتضاه واختاره لهم" [2] .

3- في التخلي عن الدفع تتنازل الأمة عن حقوقها وقوتها أمام غيرها من الأمم ، فعندما تخلت الأمة عن الدفع وغفلت عنه ، أصابها التخلف والتفرق والتشرذم والتخبط والضعف والهوان، فأصبحت لقمة سائغة أمام أعدائها ، وبالتالي تسرب في نفوس بعض أفرادها اليأس وروح الانهزامية ، " وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل، فدفعت

---

[1] السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (ت 1376هـ) ، تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن ، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، 1422هـ، ص109.

[2] الجليل، عبدالعزيز ناصر (1426هـ/2005م)، أفلا تتفكرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض ، الطبعة الأولى، ص273.

مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء"[1] .

4- تحقيق الإصلاح لأحوال المسلمين واستقامة أمور دينهم ودنياهم، وحفظ حقوقهم ورفع المظالم عنهم، وحفظ الأرض من الفساد .

5- تعريف الآخرين بأهداف الإسلام في الدفع والقتال، وبيان الفرق بين غاية القتال في الإسلام الذي تحكمه القيم ، وبين قتال الأمم الأخرى ، كما بينه السعدي: إن قتال الظلمة مبني على العداوات والجشع والظلم والاستعباد للخلق، أما الجهاد الإسلامي فغرضه الوحيد إقامة العدل، وحصول الرحمة، واستعباد الخلق لخالقهم، وأداء الحقوق كلها، ونصر المظلومين، وقمع الظالمين، ونشر الصلاح والإصلاح المطلق بكل وجه واعتبار، وهو من أعظم محاسن دين الإسلام .[2]

6- إن في ترك الدفع من جهة أهل الحق سواء بالجهاد أو كل ما يحل محله ، فيه من المفاسد وتضييع مصالح الأمة ، وفيه تقوية للباطل وغلبة لأهله، وإذلال للمؤمنين وذهاب قوتهم وزوال دولتهم، قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة:195]، فالواجب عليهم الاهتمام بالجهاد؛ فهو طريق النصر والعزة، وإظهار دين الله، ومحق الباطل وأهله [3]، ويقول عبدالعزيز الجليل: " إن الذين يؤثرون السلامة والخوف من عناء المدافعة مع الفساد وأهله ؛ إنهم بهذا التصرف لا يسلمون من العناء والمشقة، بل إنهم يقعون في مشقة أعظم ، وعناء أكبر يقاسونه في دينهم وأنفسهم

---

[1] قطب ، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت 1385هـ) ، في ظلال القرآن ، دار الشروق، بيروت، القاهرة ، الطبعة السابعة عشر ،1412 هـ ، 1655/3.

[2] انظر: السعدي، عبد الرحمن بن ناصر ، تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن ، ص109.

[3] انظر :زيدان ، عبدالكريم، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد ص 63: 64.

وأعراضهم وأموالهم، وهذه هي ضريبة السكوت وفساد التصور وإيثار الحياة الدنيا"[1] ، فكما لهذا التدافع ثمرات ومصالح تجنيها الأمة به ، فكذلك في تركه مفاسد عظيمة .

[1] الجليل، عبدالعزيز ، أفلا تتفكرون ص 273.

الفصل الأول

حقيقة التدافع في القرآن الكريم وثمراته

- **ويشتمل على المباحث الآتية:**

المبحث الأول: حقيقة التدافع.

المبحث الثاني: ثمرات التدافع.

المبحث الأول: حقيقة التدافع

المطلب الأول :الدفع ..غريزة وسلوك:

خلق الله –عز وجل – مخلوقاته وغرس فيها جملة من الغرائز من ضمنها غريزة البقاء ، التي تحرك جميع الكائنات الحية وعلى رأسها الإنسان، (لذا نجد أنه تعالى قد أودع فيها قوة لتحافظ على بقائها وسلامتها من الأذى والهلاك والفناء، وإدراكات تندفع بها إلى الذب عن نفسها وعما يخصها، ودفع المعتدي عنها وكف ضرره وخطره ، والدفاع عن ذاتها بحسب ما منحها الله من استعدادات وإمكانيات، تختلف أساليب الدفع وترتقي وتتوسع ، أعلاها دفع الإنسان بالسلاح ومقاومة العدو، وتزداد بحسب زيادة الخطر المحدق به ، إذ أودع الله في الإنسان إمكانات واستعدادات كاليد والعقل، لمقاومة المعتدي ودفع شره بكافه الوسائل ، ولولاها لاشتد طمع القوي لإهلاك الضعيف ، وزاد طمعه في تحقيق المكاسب ، ولتسلط كل ذي شهوة على غيره، وكل قوي على غيره من الضعفاء)[1].

قد تنحرف هذه الغريزة بالاتجاه السلبي ، لكون الإنسان بفطرته يميل لإشباع غرائزه وشهواته ، وقد يندفع في ذلك إلى حد الإفراط والإسراف في إشباعها لتصل إلى الإضرار بغيره ، لذا نجد الاضطراب والصراع داخله، حيث "يتنازع الإنسان في هذه الحياة عاملا الخير والشر، وكثيرا ما ينساق إلى أحدهما بدافع داخلي أو مؤثر خارجي"[2]، من هنا جاءت ضوابط الدين وأحكام الشرع لتنظيم غرائز الإنسان ، وكبح جماحها ووقايته من نزعة الشر في نفسه، فلا ينساق معها لتعود عليه وعلى غيره بالإفساد والظلم ، لأن " الأصل في هذه الشهوات أن تكون دوافع لعمارة الأرض

---

[1] انظر : ابن عاشور ، محمد الطاهر ، التحرير والتنوير 500/2.

[2] طبارة، عفيف عبدالفتاح (1983)، روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين ، بيروت/ لبنان ، الطبعة الثالثة والعشرون ، ص205.

التي خلق الله الإنسان ليقوم بها ، وحين تكون في مسارها الصحيح – أي حين تكون ملتزمة بالثوابت التي فرضها الله – فهي عندئذ قوة معينة على الخير، أما حين تنحرف عن المسار الصحيح – أي حين تصطدم بالثوابت التي فرضها الله – فهي عندئذ قوة مدمرة ، تهلك الإنسان وتفسد حياته " [1].

إن الله –عز وجل– خلق الإنسان وأسبغ عليه من النعم الظاهرة والباطنة ، وسخر له ما في الأرض من منافع ، لا ليستمتع بها فحسب ، بل ليستعين بها على عبادة الله –عز وجل– وتعمير هذه الأرض بما يحقق العبودية لله ، ولكن عندما ينصرف الإنسان عن تلك المعاني والغايات ، و" تكون غاية الوجود الإنساني هي الاستمتاع بما في الأرض من متاع ، بصرف النظر عن القيم المصاحبة لهذا المتاع من حلال وحرام ، وخير وشر ، وفضيلة ورذيلة ، ورفعة وانتكاس ، تكون الحضارة هي العمارة المادية للأرض ، وهي تيسير الحياة الأرضية وتزيينها ، والانكباب على متعها ولذائذها ، وتكون في الوقت ذاته هي محاولة التغلب على الآخرين ، للاستئثار بأكبر قدر من المتاع، ومحاولة إخضاعهم بالقوة والقهر، سواء بالقوة المادية أو القوة العسكرية أو القوة السياسية أو القوة الاقتصادية أو القوة العلمية أو كلها جميعا"[2] .

كما خلق الله تعالى الإنسان وجبله على الاختلاط بأخيه الإنسان، فهو اجتماعي بطبعه، ولا يمكنه العيش منفردا منعزلا عن غيره ، بل يتفاعل في نطاق مجموعة بشرية كالأسرة والجماعة والقبيلة والشعب ، يقول ابن تيمية: " إذ كان الإنسان مدنيا بالطبع ، لا تتم مصلحته إلا ببني

---

[1] قطب ، محمد (1418هـ/ 1998م)، حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية ، دار الشروق، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ص105.

[2] قطب ، محمد (1418هـ/1997م)،مفاهيم ينبغي أن تصحح ، دار الشروق، القاهرة ، الطبعة التاسعة، ص 339.

جنسه، يعاونونه على جلب المنفعة ودفع المضرة "[1] ، ويقول أيضا: "الإنسان مدني بالطبع لا يعيش إلا مع بني جنسه "[2]، ويقول ابن القيم:" إن الإنسان مدني بالطبع، لا بد له أن يعيش مع الناس" [3]، ومن الطبيعي أن يرتبط هذا التفاعل والاختلاط والاختلاف بغريزة وسلوك الدفع ، لحماية نفسه من أي خطر وصراع يهدد حياته وعقيدته ومصالحه نتيجة هذا الاختلاط والتنازع ، ويعلل ابن عاشور – رحمه الله – لهذا السلوك بقوله : " والله بنى نظام هذا العالم على تعاون الناس بعضهم مع بعض لأن الإنسان مدني بالطبع، فإذا لم يأمن أفراد الإنسان بعضهم بعضا، تنكر بعضهم لبعض وتبادروا الإضرار والإهلاك ، ليفوز كل واحد بكيد الآخر قبل أن يقع فيه ، فيفضي ذلك إلى فساد كبير في العالم" [4].

وقد أكد محمد قطب ما تقدم، بأن في الإنسان نوازع ودوافع وشهوات، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران:14] ، وتمثل ضغوطا على نفسه، بالإضافة إلى أن تحقيقها يعرضه لضغوط مادية واقتصادية وسياسية واجتماعية نتيجة اجتماع البشر على الأرض، وتدافعهم على تحقيق هذه الشهوات ، وفي المقابل جعل له إرادة يواجه بها ضغوط إشباع رغباته، ونتيجة هذه الضغوط والإرادة التي يتصرف بها إزاءها، يتحدد سلوك الإنسان في الأرض، إلا أن هذه الإرادة –وإن كانت لا تلغي الضغوط– فإنها

---

[1] ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم،(ت 728هـ)،الرد على البكري، (تحقيق :محمد علي عجال)، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة ، الطبعة الأولى ، 1417هـ، 189/1.

[2] ابن تيمية ،أحمد بن عبدالحليم،(ت 728هـ)، بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، ،(تحقيق مجموعة من المحققين)، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الأولى ،1426هـ، 453/3.

[3] ابن القيم ، محمد بن أبي بكر(ت751هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة– بيروت، مكتبة المنار الإسلامية– الكويت ، الطبعة السابعة والعشرون ،1415هـ/1994م ، 13/3.

[4] ابن عاشور ، محمد الطاهر ، التحرير والتنوير 335/22.

تعدّلها، وتتحكم في طريقة الاستجابة لها، فتعطي الإنسان قدرا من حرية التصرف يختلف بها عن الحيوان[1].

وبالرجوع إلى علم الاجتماع نجد أن لعلماء الاجتماع تعريفا لظاهرة الصراع والتنازع في المجتمعات البشرية بأنه : تصادم بين القوى الاجتماعية يحدث نتيجة تحول المنافسة من سوية إلى مظهر متطرف هدام ، وعندئذ يقذف المتنافسون بكل ما في حوزتهم من قوى وإمكانات للقضاء على غريمهم، ويتبعون في ذلك أهواءهم الجامحة، ويحكمهم مبدأ تنازع البقاء والبقاء للأقوى[2].

أما فيما يتعلق بالوسيلة التي يلجأ إليها الإنسان ، فبلا شك أنها تختلف عن وسائل الكائنات الأخرى ، نظرا للاختلاف بينه وبين الحيوان الذي أودع الله فيه وسائل لدفع الضرر عنه استجابة لهذا السلوك، فقد يدفع الإنسان بنفسه أو يحتاج لغيره للدفع ، والتي بينها ابن خلدون في مقدمته بقوله: يحتاج كل واحد من البشر في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه ؛لأن الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كلها ، وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان ، ولما كان العدوان طبيعيا في الحيوان جعل لكل واحد منها عضوا يختص بمدافعة ما يصل إليه من عادية غيره ، وجعل كذلك للإنسان عوضا من ذلك كله الفكر واليد ، فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر، والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع ؛مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة ،والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة ،والتراس النائبة عن البشرات الجاسية[3] إلى غير ذلك.[4]

---

[1] انظر : قطب ، محمد ، حول التفسير الإسلامي للتاريخ، مطابع المجموعة الإعلامية ، ص81.

[2] انظر: عبدالجواد، أحمد رأفت، مبادئ علم الاجتماع ، مكتبة نهضة الشرق / جامعة القاهرة، ص101.

[3] الجاسية والجاسئة: الصلبة والخشنة ،انظر: الفراهيدي ، الخليل ، العين 161/6.

[4] انظر : ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد، (ت 808هـ)، مقدمة ابن خلدون، (تحقيق عبدالله محمد الدرويش)، دار يعرب، دمشق، الطبعة الأولى، 1425هـ/2004م ،137/1.

ويؤكد ابن خلدون على ترسخ هذا السلوك في النفس الإنسانية سواء بالممارسة السلبية أو الإيجابية ، وأن تقويم هذا السلوك يكون بالملك والسلطة الرادعة ، حتى لا تسود المجتمعات البشرية شريعة الغاب ، فلا يأمن الناس على دينهم ودنياهم، بالإضافة إلى تعاليم الشريعة وأحكامها كما تقدم في هذا المطلب ؛ فيقول: " في الاجتماع البشري لا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم، وليست آلة السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدو عنهم، لأنها موجودة لجميعهم، فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض، ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم و إلهاماتهم ، فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان، وهذا هو معنى الملك" [1] .

ومما ينبغي الإشارة إليه أن سلوك الدفع في المجتمعات الإنسانية ، مظهر من مظاهر الحياة والنمو والاستمرار ،(ابتداءً من الخلية ، وانتهاءً بالحياة الحية ، وهو إحدى محركات الحياة الاجتماعية، وله صوره المتعددة ، من الحوار والمناظرة والقتال والمواجهة والمنافسة والسباق والمغالبة ، منها :المشروع المحكوم بضوابط ليست من وضع الإنسان، ومنها ما يستخدم وسائل غير مشروعة ، وكل ذلك يقع ضمن دائرة الصراع الحضاري ، الذي يندفع من عقائد و رؤى قيمية، وأنماط حياتية وسلوكية تسعى للبرهنة على أحقيتها ،وإثبات وجودها ، فهي أشبه ما تكون في خصوصيتها ببصمات الأصابع لا يمكن أن تتطابق ، ذلك أن التطابق يعني التوقف والموت ، وبعبارة أخرى: الصراع بين المعروف والمنكر لا يتوقف إلا بتوقف الحياة)[2].

---

[1] انظر : المصدر السابق 138/1.

[2] انظر : القديدي، أحمد (1415هـ/1995م) الإسلام وصراع الحضارات، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية– قطر، الطبعة الأولى، (مقدمة لعمر عبيد) ص10.

المطلب الثاني: الدفع ..سنة إلهية:

أودع الله – عز وجل– في هذا الكون سنناً ونواميس إلهية يقوم عليها ، فكل ما يدور فيه ويقع من حوادث وأحداث ليس على سبيل الفوضى والمصادفة والعشوائية ، بل قوانين محكمة ودقيقة لا تتجاوزها، وقد توسع القرآن الكريم بالحديث عن هذه السنن ونبه المسلمين على استيعابها والسير بمقتضاها، منها سنة الابتلاء والتغيير والتمحيص والتدافع والنصر والهزيمة والتمكين وغيرها من السنن .

تتسم هذه السنن الإلهية بالثبات، فلا تتغير على مر الأزمنة وتبدل الأحوال وتعاقب الأمم، قال تعالى: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ [فاطر:43]، وكذلك كونها مضطردة لا تتخلف وإلا لما كان من سرد قصص الأمم الغابرة وماحل بها أدنى فائدة ، فقد اهتم القرآن الكريم بذكر أخبار الأمم ، لأخذ العظة والعبرة مما جرى عليها من سنن الله التي لا تتخلف عن خلقه، قال تعالى: ﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨ ﴾ [آل عمران137 :138] ، كما تتصف سنن الله بالعموم فحكمها يسري على الجميع دون استثناء أو محاباة أو تمييز وهي غير مقتصرة على فرد دون فرد ولا قوم دون قوم .[1]

وقد اقتضت حكمة الله –عز وجل– أن يسود المجتمعات الإنسانية التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف، حتى يتم التسابق والتدافع والتنافس في الخيرات، ويتم التعارف والتعايش، ويتحقق التعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان، قال تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ

---

[1] انظر: زيدان ، عبدالكريم ، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد ص 14.

وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحُجُرات:13]، وهذا التنوع إنما هو مرتبط بسنن الله في الأرض، فهو" قانون كوني وسنة إلهية ، حتى يكون هناك تدافع وتسابق في الخيرات ، وتعاون على عمران الكوكب الذي يعيش عليه الإنسان"[1].

فبالإضافة إلى كون التدافع غريزة وسلوكاً للكائنات الحية وعلى رأسها الإنسان ، فهو سنة اجتماعية من السنن الإلهية التي أودعها الله في كونه الممتد ، (سنة تتعلق بسلوك وأفعال البشر خاصة ، أفرادا كانوا أو أمما وجماعات، وبالأخص مواقفهم من شرع الله ودينه وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة)[2]، والتاريخ حافل بنماذج من التدافع بين(أهل الحق الذين يحملون معاني الحق وبين أهل الباطل الذين يحملون معاني الباطل، ويسعى كل فريق إلى إظهار هذه المعاني في الخارج وإقامة شؤون الحياة على أساسها ، فيحصل التعارض والتزاحم والتدافع بين الفريقين) [3] ، وقد عرض القرآن الكريم بعضا من هذه النماذج.

ومن حكمة الله –عز وجل – أن لا تنفرد قوة بحكم الأرض فتقضي على سواها ، بل تظل القوتان متدافعتين حتى يكون النصر لإحداهما، فالتدافع بين أهل الحق وأهل الباطل مستمر منذ بدء الخلق إلى ما يشاء الله تعالى ، وسنة التدافع من أقدم السنن الإلهية على وجه الأرض، منذ امتنع إبليس من السجود لسيدنا آدم وخالف أمر الله –عز وجل– ، ثم أهبطا إلى الأرض لتستمر حلقات التدافع إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة:36].

---

[1] عمارة ، محمد (2010) ، الإسلام في مواجهة التحديات، دار نهضة مصر للنشر، الطبعة الثالثة، ص127.

[2] انظر: زيدان ، عبدالكريم ، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد ص 13.

[3] انظر : المصدر السابق ص45.

يعتبر الدفع والتدافع بين أهل الحق وبين أهل الباطل، سنة إلهية كغيره من السنن، لكونه عملا ذا سبب له غاية وهدف، ويتجاوز ذات الفرد العامل إلى المجتمع ، ويتخذ من المجتمع أرضية له[1] ، وسنة التدافع من السنن الاجتماعية التي أشار إليها القرآن الكريم ، ويلمح الإنسان أثرها الفاعل في كل زمان ومكان ، حيث يسلط الله الظالمين بعضهم على بعض ، وتكون بذلك فرصة لنجاة المستضعفين، ونمو الخير وحماية أهله ، لذا ينبغي على المسلمين حتى يقوموا بالدور الذي كلفهم الله به من الاستخلاف في الأرض وتحكيم شرعه وجعل كلمته هي العليا، أن يعملوا وفق سنن المدافعة هذه السنة الاجتماعية التي تحكم المجتمعات البشرية ويحسنوا التعامل معها [2]، طالما أنه في كل يوم تقوم قوة ظالمة غاشمة تحاول أن تفتنهم عن دينهم ، وقوى ظاهرة وخفية تدرس وتخطط لتصد الناس عن الدين ، ولذلك كانت الجماعة المسلمة مكلفة في كل حين بأن تحطم القوى الظالمة تلك ، وأن تحول دون الفساد في الأرض حتى يكون الطريق واضحا أمام الناس .[3]

وكما أن التدافع سنة اجتماعية من سنن الله تعالى وقوانينه في المجتمعات البشرية ، التي لا تتخلف ولا تتبدل ، قال تعالى :﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الأحزاب:62]، كذلك فهو(سنة فردية ، فالفرد ليس خارجاً عن دائرة الصراع والتدافع الذاتي ، في

---

[1] انظر: الصدر، محمد باقر(1409هـ/1989م)، السنن التاريخية في القرآن، صياغة وترتيب: محمد جعفر شمس الدين، دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الأولى، ص 76.

[2] انظر: الغزالي، محمد (1412هـ/1992م)، كيف نتعامل مع القرآن، دراسة: عمر عبيد حسنة ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة ، الطبعة الثانية.ص49،ص 127.

[3] انظر: الزين، سميح عاطف (1411هـ/1991م)، معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنة ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى ، 100/2.

الاختيار بين دوافع الخير ، ونوازع الشر في نفسه ، وبالتالي له حرية تحديد الاختيار)[1]، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:3] ، وعليه فهو محاسب على اختياره.

ولا يمكن للإنسان أن يصطدم بالسنن الإلهية أو يهملها، ويتجاوزها فيضعها جانبا دون فهمها وتوظيفها والعمل وفقها والاهتداء بها ، ليس فقط لأنها حقائق ثابتة ومطلقة لا تجامل ولا تحابي ، ولكن لأن بإمكان(هذه السنن أن تقهر الإنسان، وأن تخرب مدنياته، وتقضي على حضاراته بما يضيع عليه مجهودات كثيرة بذلها لو آتت ثمارها لكان حقق أكثر ، وتوصل إلى أبعد)[2] ، لذا ينبغي على المسلمين الانتفاع بهذه السنن ، لتسخيرها في مصالح دينهم ودنياهم بما يعود عليهم بالنفع، بفهم حقيقتها وقوانينها ، (لأن التعامل مع أي ظاهرة دون تحليلها ومعرفة أسباب نشوئها واستيعابها والإحاطة بها ، سوف يوقع بإحباطات كبيرة ، ونتائج غير محسوبة ، فدخول المعركة ، بدون أسلحتها الفاعلة ، سوف يؤدي إلى الخسارة الفادحة) [3].

وقد تضمن القرآن الكريم على عدة نماذج من تدافع الأنبياء – عليهم السلام – مع أهل الباطل وأعداء الله من أقوامهم ، وأرشد إلى النظر في نتائج هذا التدافع ، قال تعالى:﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام:11]، ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران:137]، فقد نبه وأرشد إلى (النتائج التي تحققت وفق هذه السنن الإلهية في التاريخ، حتى جعل السير في الأرض والنظر في أحوال الأمم

---

[1] انظر: القديدي ، أحمد ، الإسلام وصراع الحضارات (مقدمة لعمر عبيد) ص10.

[2] الزين ، سميح ، معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنة 28/2.

[3] انظر : القديدي ، أحمد ، الإسلام وصراع الحضارات (مقدمة لعمر عبيد) ص16.

السابقة ، وادراك السنن والقوانين ،التي حركت مسار التاريخ ، من العلوم المطلوبة للمسلمين ، والتي بدونها سوف ينقلبون من وسيلة محركة فاعلة قائدة مسخرة إلى أداة معطلة) [1].

وسنة التدافع بين أهل الحق وبين أهل الباطل وانتصار أحد الفريقين ،لا علاقة له بخيرية أمة الإسلام ، بل بمباشرة الأسباب لنيل المطلوب وتحقيق النصر وربط الأسباب بالمسببات ، لأن النصر مرتبط بسنن التاريخ التي لا تحابي طرفا دون طرف ، (فالمسلمون انتصروا في معركة بدر لأنهم حققوا الشروط الموضوعية للنصر بحسب منطق سنن التاريخ التي تفرض أن ينتصروا ، وخسروا في معركة أحد حينما كانت الشروط الموضوعية للخسارة بحسب نفس المنطق في معركة أحد ، تفرض عليهم أن يخسروا المعركة، فالنصر ليس حق إلهي لهم، بل حق طبيعي بقدر ما يمكن أن يوفروا هذه الشروط الموضوعية، ويأخذوا بأسباب النصر).[2]

إن وعد الله بالدفع والنصر والغلبة لا يلغي العمل بالسنن والقوانين الإلهية بحدوث خوارق ومعجزات، بل يجب على المسلمين الأخذ بها ، يقول سيد قطب – رحمه الله – :" والقرآن الكريم يرد المسلمين إلى سنن الله في الأرض، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور ، فهم ليسوا بدعاً في الحياة، فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافاً، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بأسباب النصر" [3].

---

[1] انظر : القديدي ، أحمد ، الإسلام وصراع الحضارات (مقدمة لعمر عبيد) ص18.

[2] انظر : الصدر ، محمد باقر، السنن التاريخية في القرآن ص50.

[3] قطب، سيد، في ظلال القرآن 478/1.

إن العمل بهذه السنة وغيرها من السنن ، إنما هو جزء من عقيدة المسلم ، ليسلك المسار الصحيح في هذه الحياة للفوز بوعد الله ، والأخذ بها إنما هو مطلب شرعي لفهم الدين وتحقيق منهج الإصلاح القرآني لهذه الأمة وعمارة الأرض ، يقول عبدالكريم زيدان :" إن معرفة سنن الله جزء من معرفة الدين أو معرفة لجزء من الدين، وأن هذه المعرفة ضرورية ، ومن الواجبات الدينية لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة ، حتى لا نقع في الخطأ والعثار والغرور والأماني الكاذبة ، وبذلك ننجو مما حذرنا الله منه ، ونظفر بما وعد الله به عباده المؤمنين المتقين " [1].

المطلب الثالث: المفهوم القرآني للتدافع :

الدفع والتدافع في المفهوم القرآني يختلف عن مفاهيم الأمم الأخرى ، فهو لا يعني صراع البقاء للأقوى الذي يعتقده أهل الباطل، ومحاولة إلغاء الآخر بشتى الأساليب والوسائل دون مراعاة أدنى قيم الإنسانية ، بل هو صراع تحكمه القيم وتنظمه الشريعة (فالسنة التي أشار إليها القرآن الكريم ليس المقصود فيها "صراع البقاء" الذى يقول به الغرب ويعمل وفق ذلك المفهوم، ويعتقد أنه الغاية القصوى من الوجود، إن صراع البقاء لمجرد البقاء، أو من أجل الغلبة والسيطرة، بغير قيم ولا أخلاق، لهو صراع مدمر، لأنه هو الذى جعل شريعة الغاب هي العملة المتداولة بين الشعوب، القوى يأكل الضعيف، أو يزيحه من الطريق) .[2]

ونظرا لترسخ هذا المبدأ لدى غير المسلمين، وهو البقاء للأقوى ، دون مراعاة لحق الطرف الآخر، ودون مراعاة لأدنى القيم الإنسانية ، تتم استباحة الآخرين بل استئصالهم وفق هذا الاعتقاد، و(تصبح النظرة للآخر عدوانية ،لأنها تنظر إلى الآخر نظرة دونية فتتسلط عليه ، وتحاول أن

---

[1] زيدان ،عبدالكريم، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد ص 16.

[2] انظر: قطب، محمد (1422هـ/2002م)، لا يأتون بمثله، دار الشروق، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ص165.

تصرعه وتتغلب عليه ، وهذا يستدعي استعماره واسترقاقه واستنفاد طاقاته ليبقى صريعا)[1]، والتاريخ يتضمن مظاهر لإقصاء واستحواذ الأمم والجماعات الظالمة على غيرهم ، مما لا طاقة لهم بدفع شرهم عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ومصالحهم ، وصور بغيهم في الأرض بغير الحق وظلمهم وفسادهم، بينما نجد دولة الإسلام قامت على أسس العدل، وحفظ الحقوق والمحافظة على القيم الإنسانية، دولة أسست (حضارة إنسانية تعترف بالآخر، وليست حضارة حقد وصراع ،هي حضارة الإنسان التي تدعو إلى الحوار على كلمة سواء، وتعتمد الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتتنكر للإكراه في الدين ، وإنما شرعت القوة في الإسلام حتى تحمى حرية الاختيار وتحقيق إنسانية الإنسان ، وإن كسبت بعض الجولات في الصراع ، إلا أن العبرة دائما بالعواقب والمآلات ، فالأفكار والعقائد ، تبقى أقوى من القوة المادية ، وأن قيم المغلوب عسكريا، كانت أقوى من عسكر الغالب)[2].

اقتضت حكمة الله أن يقوم الخلق على سنة كونية لا تتبدل ولا تتحول، وهو قانون وقاعدة (التعددية والتنوع والاختلاف في كل عوالم الخلق ،المادية والحيوانية والنباتية والإنسانية والفكرية في الشعوب والأمم والقبائل ، وفي الألسنة واللغات والقوميات وفي الشرائع والملل والنحل، وفي المناهج والثقافات والحضارات ، لذلك فإن هذا التدافع الذي ترتب على هذا الاختلاف والتعدد– الذي لا وجود له بدون فرقاء متعددين– هو سبب ووسيلة وطريق الصلاح والإصلاح لما يحدث في الاجتماع الإنساني من فساد وإفساد ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:251].

---

[1] انظر :القديدي ، أحمد ، الإسلام وصراع الحضارات (مقدمة لعمر عبيد) ص31.

[2] انظر : المصدر السابق.

لذلك يرفض الإسلام فلسفة الصراع والبقاء للأقوى؛ لأن الصراع يعني أن يصرع طرف الطرف الآخر فينهيه ويقضي عليه وينفرد بالساحة ، والانفراد والاستغناء في الرؤية الإسلامية هو مقدمة للطغيان وثمرة للصراع المذموم ، قال تعالى :﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق6:7] ، لذلك يقدم الإسلام فلسفة التدافع الذي هو وسط بين السكون والموات وبين الصراع، الذي هو حراك اجتماعي يعدل المواقف لتصل إلى لحظة الوسط والعدل ، دون إنهاء للتعددية والتمايز والاختلاف ، فتتعايش المذاهب والأفكار والفلسفات والطبقات والحضارات، حتى اذا ما اختلت العلاقات بين أطراف التعدد ، فوصلت إلى الظلم بدلا من العدل ،أو إلى الغلو بدلا من التوسط ، كان التدافع سبيلا لإعادة الفرقاء إلى لحظة العدل والوسطية والتوازن مع بقاء التنوع والاختلاف)[1].

فالمفهوم القرآني للتدافع يخالف مفهوم البقاء للأقوى ، فهو صراع للبقاء دون إقصاء للآخر، صراع تقيده القيم الإنسانية، وتنظمه روح الإسلام المتسامح،(هو حراك اجتماعي وتنافس وتسابق يعدل المواقف الظالمة والممارسات الجائرة ، دون صراع يصرع الأطراف الأخرى فيلغي التعددية ، وإنما بالحراك والتسابق الذي يعيد العلاقات المختلة إلى درجة التوازن والعدل في العلاقات بين مختلف الفرقاء)[2]،ومما يؤكد بطلان نظرية صراع البقاء للأقوى في الإسلام ، هو استمرار التدافع في قوله تعالى :﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة:251] ؛ لأن هذا الدفع هو الذي يمنع فساد الأرض ومن عليها ويحول دونه .

---

[1] انظر : عمارة ، محمد ، الإسلام في مواجهة التحديات ص130ص 226؛ عمارة، محمد (1998) الحضارات العالمية تدافع أم صراع، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة ، الطبعة الأولى ، ص 17.

[2] انظر: عمارة ، محمد ، الحضارات العالمية تدافع أم صراع ص18.

وبناء على ما سبق استوعب أهل الحق من الصدر الأول في الإسلام ومن سار على أثرهم هذا المفهوم القرآني، وعملوا وفق دلالته وما يرمي إليه، فترسخ عند المسلمين متطلبات الاستخلاف والتمكين في الأرض، وقواعد هذا التدافع وما يرمي إليه والغاية منه، فتعاملوا مع الآخرين باعتبار هذا العالم (منتدى ثقافات وحضارات وشرائع وقوميات ، تتوازن بينها المصالح لا القوى، وتتعارف وتتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، وأن على أعضاء هذا المنتدى الإنساني التفاعل فيما هو مشترك إنساني عام، والتمايز فيما هو من الخصوصيات الثقافية والعقدية والفلسفية، وذلك لتحقيق مقاصد التعارف والتعايش والتعاون في القيام برسالة الاستخلاف الإلهي للإنسان كي يعمر هذه الحياة الدنيا، طلبا للسعادة الاخروية) [1].

وقد جاء في القرآن الكريم عرضا لحلقات الصراع بين الحق والباطل ، وكيفية مواجهة أهل الحق لهذا الباطل ، فقد رسم لهم منهجا قرآنيا يضمن لهم الغلبة والنصر إن هم اتبعوه ، لأن " الإنسان لم يترك وحده في هذا الصراع ، فعلى الرغم من أنه قد وهب قدرات العقل والروح والإرادة والنطق والعمل ، فإن الوحي ظل يمده بشريعة السماء العادلة ، ويوضح له صراطها المستقيم " [2]، ولقد كانت الغاية من عرض القرآن الكريم لنماذج تدافع الأنبياء وأتباعهم على مر التاريخ ، إنما ليرسخ ويقرر " أن الحق هو المنتصر في نهاية الصراع دائما ، ولقد كان هذا المعنى مصدرا لطموح الإنسانية في الإسلام إلى المثل العليا ، التي لم تعد عرفا اجتماعيا تمليه ارتباطات معينة بالجماعة أو القبيلة أو الوطن، ومن أجل ذلك كانت كل قصة من قصص الكفاح والصراع ضد

---

[1] انظر : عمارة ، محمد ، الإسلام في مواجهة التحديات ص254.

[2] الواعي، توفيق يوسف(1425هـ/2004م)، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، مكتبة المنار الإسلامية –الكويت، الطبعة الثانية ، 400/1.

الباطل، غراما وعشقا يهيم به أصحاب العقائد والرسالات ، وفي النهاية كانت الدائرة تدور على البغي والباغين " [1].

فغاية التدافع الذي أشار إليه القرآن الكريم ، وقام به أنبياء الله – عليهم السلام– ومن تبعهم من المؤمنين أهل الحق ، في مواجهة أهل الباطل ومدافعتهم ، منع الفساد بأنواعه العقدي والمالي والمجتمعي والقيمي وغيره ، أو على الأقل العمل على انحسار الفساد ، بإضعاف الباطل ودفعه ، أي العمل على (غلبة الخير والقضاء على الشر، فيزهق الباطل وينتصر الحق، وتخلو الأرض من الفساد أو في القليل ينحسر الفساد فلا يصبح هو المسيطر)[2] ، و لم تكن للسيطرة على مقدرات الآخرين وعقائدهم ومصالحهم، فهو دين السلام لا يختزل مجده في انتصارات عسكرية ، بل لرفع راية التوحيد والعبودية لله وإرساء دعائم الحق، وحفظ حقوق غير المسلمين قبل المسلمين أنفسهم، وتحقيق العدل وإزالة الظلم والبغي والطغيان، فلم يخرج الرسول ﷺ وأصحابه لتحقيق نصر عسكري ليتوسعوا في الأرض ويملكوها، أو يستعبدوا البشر، ولا ليطلبوا العلو والاستكبار، ولا " ليؤسسوا إمبراطورية عربية أو قرشية ، ينعمون في ظلها ، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها، ويخرجون الناس من حكم الفرس والروم إلى حكم العرب ، أو إلى حكم أنفسهم ، وإنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة الله وحده ... وفي ظل هذه الرسالة وتلك العقيدة استطاعت الأمم والشعوب المضطهدة والمغتصبة في القديم ، أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكم، وأن تساهم في صنع حضارة سعدت بها الدنيا عصورا متطاولة، وآمادا مديدة " [3].

---

[1] انظر : الواعي ، توفيق ، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية 400/1.

[2] انظر : قطب ، محمد ، لا يأتون بمثله ص165.

[3] الواعي، توفيق، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية 2/ 558.

وفي تأكيد القرآن الكريم على دور المؤمنين، في الإصلاح ودفع الفساد في حالة الغلبة على أهل الباطل ، دلالة على الغاية من هذا الدفع والمدافعة ، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج:41]، (فالمؤمنون إن هم انتصروا أقاموا الصلاة؛ أي أنهم توجهوا إلى السمو الروحي من عبادة الله وتطهير أنفسهم ، وآتوا الزكاة ؛ أي أنهم حققوا العدالة الاجتماعية من إعطاء المحتاجين حقهم في هذه الحياة، وأمروا بالمعروف؛ أي أشاعوا الخير والحق بين الناس ، ونهوا عن المنكر ؛ أي حاربوا الشر والفساد واستأصلوهما من المجتمع) [1].

وبالمقارنة بين غاية الدفع في الإسلام وغيرهم من الأمم الأخرى، التي توفرت لها القوة والسيادة ، نجد هذه الأمم " راحت توالي الفتوح إلى كل جهة، طلبا للتوسع في الملك والتضخم في الثروة ، فكانت الطريقة التي تتبعها هي ما تمليها عليها القوة الغاشمة لا أصول العدالة ، فكانت تستولي على المدن فتدك عمرانها ، وتسلب أموالها وتستذل أهلها وتولي عليها من يسومها الذل والظلم ، هذه سنة الفاتحين ، وقد أحسنت إيجازها ملكة سبأ ، إذ قالت حين أتاها كتاب سليمان – كما جاء في القرآن – : ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل:34]" [2] ، في حين أن القرآن الكريم حذر من الظلم والفساد والطغيان (في عبارات مؤثرة وألوان من البيان ، فاقتلع جذور هذه الرذيلة من قلوب أهل الحق ، وأحل محلها إنسانية لا تعدو عليها الاعتبارات العدائية بل الإنصاف والعدل ، وحذرهم من معاملة الشعوب بالقسوة والجبروت وتخريب العامر من مدنهم)[3].

---

[1] انظر: طبارة ، عفيف، روح الدين الإسلامي ص394.

[2] المصدر السابق ص 302.

[3] انظر: طبارة ، عفيف، روح الدين الإسلامي ص302.

وقد اشتمل القرآن الكريم على حقائق اجتماعية ، حول الصراع والتدافع عند أهل الباطل منها على سبيل المثال ؛ إن كل مجموعة من البشر ترى أن ماهي عليه من المعتقد والقيم والعمل أفضل مما عليه غيرها ، مهما بلغ من بطلان بمقياس الشرع قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:108]،وكلما كان غيرهم أقرب إليهم كان أحب إليهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ [الإسراء:73]، كما أنهم لا يرضون رضىً كاملاً إلا عمّن كان على شاكلتهم قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[البقرة:120]، فيحرصون على الضغط على مخالفهم بأنواع الضغوط تصل إلى الضرب أو السجن أو القتل قال تعالى:﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال:30]، وأن من أهل الأديان والحضارات من يعد دينه أو حضارته من خصائص قوميته أو عرقه، فلا يريد للآخرين أن يشركوه فيها، بل لا يراهم مساوين له حتى من الناحية الإنسانية ، لذلك لا يرى نفسه ملزما بأن يلتزم في تعامله معهم بالقيم الأخلاقية قال تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:75]، كما يريد أولئك لمعتقداتهم أو حضاراتهم أن تكون هي المسيطرة وغيرهم خداما لمصالحهم ، تدفعهم رغبتهم في السيادة والسيطرة لأن يعدوا العدة لضمان بقاء وجودهم وحضارتهم وللدفاع عنها أمام أي خطر قد يواجهها ، وللعمل

على إخضاع الآخرين لها بكافة الإمكانيات لتحقيق ذلك وإن لجؤوا للحرب والصراع [1].

يتضح مما تقدم أن طرفي الصراع والتدافع هما أهل الحق وأهل الباطل، أي فريقين متضادين مختلفين متناقضين في الهدف والوسيلة والمنهج والغاية ، بمعنى أن أهل الحق لا يمكن أن يقع فيما بينهم تدافع وصراع، وأما ما يحصل بينهم من اختلاف فإنما هو تنازع ذمه القرآن الكريم، وحذر منه في أكثر من موضع ، قال تعالى :﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:46]، وانتقلت التوجيهات القرآنية في حال التنازع من النصح والتوجيه ، إلى قتال من شذ عن جماعة المسلمين إن لزم الأمر، للحفاظ على وحدتهم في مواجهة أهل الباطل، قال تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحُجُرات:9]، (إن المعارك التي نراها في الكون لا نجد فيها معركة بين حقين؛ فالحق واحد، والمعركة إن وجدت توجد بين حق وباطل، أو بين باطل وباطل، ونرى في معارك العصر الحديث أن المعركة تطول وتطول؛ لذلك لا نجد من يصلح بين الباطلين، بل نجد أهواءً تتعارك، وكل جانب ينفخ في الطائفة التي تناسب هواه)[2] .

---

[1] انظر: ادريس، جعفر الشيخ (1433هـ)، صراع الحضارات بين عولمة غربية وبعث إسلامي، مركز البحوث والدراسات ، مجلة البيان، عدد (144) ، الرياض ، الطبعة الأولى، ص26.

[2] انظر : الشعراوي ، محمد متولي (ت 1418هـ) ، تفسير الشعراوي، الخواطر، مطابع أخبار اليوم ، 1062/2.

المبحث الثاني: ثمرات التدافع

أهتم القرآن الكريم بتوجيه المسلمين للقيام بكل ما يصلح دينهم ودنياهم ، فحث أهل الحق على القيام بالتدافع وشحذ الهمم وقوى العزائم ، وذم التقاعس عنه ، لما يترتب على التدافع من مصالح ومنافع للأمة ، في دينها وعقيدتها ، ومعايشها وحقوق أفرادها، وشأنها وعزتها بين الأمم ، والامتثال لأمر الله – عز وجل– بالتدافع إنما هو من كمال الإيمان واليقين بالله وحسن الإسلام .

للتدافع ثمرات على الصعيد الفردي والجماعي، وليس كما يثيره الأعداء من شبهات حوله لتخذيل المسلمين عنه، خوفاً من تغلب المسلمين عليهم، لأن دفع الأعداء يردع الباطل والفساد، ولن تقوم لهما قائمة ، ويعلي صوت الحق، ويقيم ميزان العدل ، وفي هذا المبحث سأتتبع عرض القرآن الكريم لثمرات التدافع ومنافعه للأمة.

المطلب الأول: رفع راية التوحيد

من أسمى وأعظم ثمرات التدافع بين أهل الحق وأهل الباطل ، رد الناس إلى عبودية الله وتوحيده ، وإنقاذهم من الشرك والكفر، وحماية الدين والعقيدة وحفظ المسلمين من الفتنة في دينهم، ومن ظهور العقائد الفاسدة والأديان الباطلة ، والمتتبع لآيات القرآن الكريم التي تناولت صراع أنبياء الله –عليهم السلام – وأتباعهم مع عتاة الشرك من أقوامهم ، يجد أن هذا التدافع والصراع إنما كان في سبيل نشر دعوة التوحيد ، وانتصار الحق وغلبته وظهور أهله ، وكسر شوكة أهل الباطل ، وذلك في صور متكررة ومتجددة في كل عصر ومصر ، وقد وصف السعدي التدافع والقتال في سبيل الله بأنه:" من الضروريات في الدين؛ فإن المقصود به إقامة دين الله، والدعوة إلى عبادته التي خلق الله المكلفين لها وأوجبها عليهم، ودفع كل من قاوم الأمر الضروري، ومقاومة الظالمين

المعتدين على دين الله وعلى المؤمنين من عباده" [1]، بالتدافع يسخر الله المؤمنين لنصرة دينه ونشر دعوته، وتحكيم شرعه بين الناس، ويبذلون في سبيل ذلك أرواحهم وأموالهم .

قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:193] ، ذكر الطبري في سبب الأمر بالقتال :"حتى لا يكون شركٌ بالله، وحتى لا يُعبد دونه أحدٌ، وتضمحلَّ عبادة الأوثان والآلهة والأنداد، وتكونَ العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان" [2]، قال الزمخشري :"وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة إلى أن لا يوجد فيهم شرك قط، ويكون الدين كله لله ، ويضمحل عنهم كل دين باطل، ويبقى فيهم دين الإسلام وحده" [3] ، وقال الرازي: " أن يكون تعالى هو المعبود المطاع دون سائر ما يعبد ويطاع غيره" [4] ، وقال ابن كثير: " يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان" [5]، وقال ابن عادل:" قاتلوهم حتى تظهروا عليهم؛ فلا يفتنوكم عن دينكم، ولا تقعوا في الشرك، ويكون الدين لله والطاعة والعبادة لله وحده لا يعبد شيء دونه " [6]، إذن غاية الدفع والقتال في الآية ليس للقتل والغنيمة والسيطرة على الآخرين، بل لنشر دين الله وعبادته وحده والدعوة إليه.

---

[1] السعدي ، عبدالرحمن ، تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن 109/1.

[2] الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الآملي (ت 310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، (المحقق: أحمد محمد شاكر)، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، 1420 هـ - 2000 م ، 570/3.

[3] الزمخشري ، محمود ، الكشاف 220/2.

[4] الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي الملقب بفخر الدين، (ت 606هـ) ، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ، دار إحياء التراث العربي- بيروت ، الطبعة الثالثة، 1420 هـ ، 292/5.

[5] ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (ت 774هـ) ، تفسير القرآن العظيم ، (المحقق: سامي بن محمد سلامة)، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية 1420هـ - 1999 م ، 525/1.

[6]ابن عادل ، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي الحنبلي الدمشقي النعماني (ت 775هـ)، اللباب في علوم الكتاب ، (المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض) دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، الطبعة الأولى ، 1419 هـ -1998م ، 346/3.

وكذلك في حال لم يأمن المسلمون على دينهم ونشر دعوتهم، فالدفع بالقتال سبيلهم، فلا يخشون من إظهار دينهم أو ممارسة شعائرهم ، وقد نقل صاحب المنار عن شيخه الإمام محمد عبده أن المراد بالآية : حتى لا تكون لأهل الباطل قوة يفتنون بها المسلمين، ويؤذونهم لأجل الدين، ويمنعونهم من إظهاره أو الدعوة إليه ، ويكون دين كل شخص خالصا لله لا أثر لخشية غيره فيه، فلا يفتن لصده عنه ولا يؤذى فيه، ولا يحتاج فيه إلى المداهنة والمداراة ،أو الاستخفاء والمحاباة[1]، قال طنطاوي: حتى يكون أهل دينه الحق أعزاء لا يسومهم أعداؤه ضيماً ، وأحراراً في الدعوة إليه وإقامة شرائعه العادلة في ظل سلطان مهيب ، ليكبت أهل الحق من المؤمنين أعداءهم الذين أعدوا أنفسهم لقتالهم ومناجزتهم وتحققت منهم سوء النية ، وفساد الطوية ، فالآية الكريمة تهييج للمؤمنين، وإغراء لهم على قتال أعدائهم بدون تردد أو تهيب ، وإرشاد لهم إلى أن يجعلوا جهادهم من أجل نصرة الحق ، لا من أجل المطامع أو الشهوات [2].

فالغاية من دفع أهل الباطل بالقتال ليست لسفك دمائهم ، وأخذ أموالهم واستباحة ديارهم وإبادتهم والاستحواذ على مقدراتهم، فقد ختم الله –عز وجل – الآية بقوله: (فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ) ، أي إذا انتهى أهل الباطل من سعيهم للإضرار بدين الله – عز وجل – وأوليائه ، فلا حاجة حينئذ لمحاربتهم ، بل يعتبر ظلماً وعدواناً بغير حق ، قال ابن كثير: "فإن انتهوا عمّا هم فيه من الشرك، وقتال المؤمنين، فكفُّوا عنهم، فإنَّ من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم، ولا عدوان إلَّا على الظالمين"[3]، وقال ابن عادل:" إن تعرضتم لهم بعد انتهائهم عن الشرك والقتال، كنتم أنتم ظالمين

---

[1] انظر :رضا ، محمد رشيد ، تفسير المنار 2/ 170.

[2] انظر: طنطاوي ، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة ، الطبعة الأولى ،408/1.

[3] ابن كثير، إسماعيل ، تفسير القرآن العظيم 526/1.

فنسلط عليكم من يعتدي عليكم" [1] ، وقال السعدي عن الغاية من تشريع القتال" أن يظهر دين الله تعالى على سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه، من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود، فلا قتل ولا قتال" [2]، قال طنطاوي: "فإن امتنعوا عن قتالكم ولم يقدموا عليه، وأذعنوا لتعاليم الإسلام، فكفوا عن قتالهم، لأنهم قد انتفى عنهم وصف الظلم، وما دام قد انتفى عنهم هذا الوصف فلا يصح أن تقاتلوهم، إذ القتال إنما يكون للظالمين تأديبا لهم ليرجعوا عن ظلمهم" [3].

ولا يقصد بالآية أن المراد هو فرض الدين بالقوة وإجبار الناس على اعتناقه ؛ بل للناس حرية اعتناقه وممارسة شعائره بلا خوف أو رهبة ، قال محمد رشيد رضا : يكون الناس أحرارا في الدين لا يكره أحد على اعتناقه إكراها ، ولا يؤذى ويعذب لأجله تعذيبا، لقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾[البقرة:256] [4] ، و يؤكد سيد قطب : ليس المراد إكراه الناس على الإيمان، ولكن بمعنى استعلاء دين الله وكلمته وإقرار شرعه في الأرض، ليقوى جانبه فيرهبه من يهم بالاعتداء عليه قبل الاعتداء ، ويلجأ إليه كل راغب فيه، فلا يخشى قوة أخرى في الأرض تتعرض له أو تمنعه أو تفتنه، فمن حق الناس أن تبلغ إليهم الدعوة الإسلامية، ويتركوا أحراراً في اعتناق هذا الدين، لا تصدهم عن اعتناقه أو تبليغه عقبة أو سلطة أو قوة بأي حال من الأحوال، وكان من حقهم ألا يفتنوا عنها بأي أداة أو وسيلة من وسائل الفتنة تعيقهم عن الاستجابة.[5]

---

[1] ابن عادل ، عمر ، اللباب في علوم الكتاب 347/3.

[2] السعدي ، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (ت 1376هـ) ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ،1420هـ -2000 م، 89/1.

[3] طنطاوي ، محمد ، التفسير الوسيط 412/1.

[4] رضا، محمد رشيد ، تفسير المنار 553/9 بتصرف يسير.

[5] انظر: قطب، سيد ، في ظلال القرآن 1/ 186:187.

يتضح مما تقدم أن أمر الله – عز وجل– لعباده المؤمنين أتباع الحق بدفع قوى الباطل، حتى لا تكون لهم القوة والغلبة ليفتنوا بها المسلمين وتزول شوكتهم ، فيكون الدين والسلطان كله لله في أرضه ، ويتمكنوا من مباشرة تعاليم دينهم، دون أن يتجرأ أحد على محاولة فتنتهم في عقيدتهم، (وإذا كان القتال يقوم بين الناس في وجوه كثيرة في سبل غير سبيل الله ، فالقتال في سبيل الله أوجب القتال وأبرّه، إذ لا غاية له إلا الانتصار للحق والتمكين له)[1].

وبناء على ذلك كان من واجب القائمين بالدفع من أهل الحق، أن يستمروا ولا يتهاونوا في تدافعهم مع الباطل الذي يسعى ليلحق بهم الأذى والفتنة، (ويظلوا يقاتلوا حتى القضاء على هذه القوى المعتدية الظالمة ، لتصبح الغلبة لدين الله والمنعة ضماناً لحرية العقيدة، وإقراراً لمنهج الله في الحياة، وكفالة لأمن الذين هداهم الله ، وحماية للبشرية من الحرمان من ذلك الخير العام ، وإذا كان النص– عند نزوله– يواجه قوة المشركين في شبه الجزيرة، وهي التي كانت تفتن الناس، وتمنع أن يكون الدين لله، فإن النص عام الدلالة مستمر التوجيه ، ففي كل يوم تقوم قوة ظالمة تصد الناس عن الدين، وتحول بينهم وبين سماع الدعوة إلى الله ، والاستجابة لها عند الاقتناع ، والاحتفاظ بها في أمان، فهم مكلفون في كل حين بتحطيم هذه القوة الظالمة ، وجعل الناس أحراراً من قهرها، يستمعون ويختارون ويهتدون إلى الله) [2] .

---

[1] انظر : الخطيب، عبد الكريم يونس ، التفسير القرآني للقرآن ، دار الفكر العربي– القاهرة، 211/1.

[2] انظر: قطب ، سيد ، في ظلال القرآن 190/1.

المطلب الثاني: حفظ الأرض من الفساد ورفع المظالم

من ثمرات التدافع حفظ الأرض من الفساد وتناسل الأحياء وتقدم العمران ، فالله– عز وجل – يدفع بأهل الحق أهل الباطل، فلا تفسد الأرض بالبغي والظلم ، لغلبة أهل الباطل والشرك على أهل الحق والتوحيد، فتحفظ به حقوق العباد ومصالحهم، وتتصلح أحوال الأمم بإقامة العدل وأداء الحقوق لأصحابها، قال تعالى:﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:251]، وقد بين الطبري حقيقة الإفساد في الأرض بأنه "العمل فيها بما نهى الله جلّ ثناؤه عنه، وتضييعُ ما أمر الله بحفظه، فذلك جملة الإفساد، كما قال جل ثناؤه في كتابه مخبرًا عن قِيلِ ملائكته:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30]، يعنون بذلك: أتجعل في الأرض من يَعْصِيكَ ويُخالف أمرك؟"[1]، إذ أصل كل مفسدة هو معصية أمر الله، فشريعة الله وأوامره هي صمام الأمان والإصلاح وحفظ البشرية .

قال الزمخشري: "ولولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض ويكف بهم فسادهم، لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها، وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض، وقيل: ولولا أن الله ينصر المسلمين على الكفار لفسدت الأرض بعيث الكفار فيها وقتل المسلمين، أو لو لم يدفعهم بهم لعم الكفر، ونزلت السخطة فاستؤصل أهل الأرض"[2] ، أي لأهلك الناس جميعا بذنوب فجارهم وشؤم معاصيهم، ذلك لأنهم لم يأخذوا على يد الظالم ليكف عن ظلمه

---

[1] الطبري ، محمد ، جامع البيان1/289.

[2] الزمخشري ، محمود ، الكشاف 1/296.

وإفساده ، قال البيضاوي: "ولولا أنه سبحانه وتعالى يدفع بعض الناس ببعض ، وينصر المسلمين على الكفار، ويكف بهم فسادهم، لغلبوا وأفسدوا في الأرض، أو لفسدت الأرض بشؤمهم" [1] .

ذكر ابن عطية أن في الآية بشارة من الله –عز وجل– لأهل الأرض، بحفظها من الفساد على مر العصور، بأن يقيض من يقوم بدفع الفساد والمظالم،" أنه لولا دفعه بالمؤمنين في صدور الكفرة على مر الدهر لفسدت الأرض، لأن الكفر كان يطبقها ويتمادى في جميع أقطارها، ولكنه تعالى لا يخلي الزمان من قائم بحق، وداع إلى الله ومقاتل عليه، إلى أن جعل ذلك في أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة " [2]، كما أن في الآية حثا وأمرا لأهل الحق في كل عصر، أن يدفعوا ويقاوموا الباطل وأهله بكل وسيلة منعا لفسادهم وبغيهم وطغيانهم.

ومن مظاهر هذا الإفساد الذي يتصدى له أهل الحق بدفعهم أهل الباطل : القتل وانتشار المعاصي، وتخريب الديار، والتسلط على العباد، وتعطل المصالح، وضياع الحقوق، قال الرازي :" لفسدت الأرض أي لغلب على أهل الأرض القتل والمعاصي"[3] ، وقال النسفي :" لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها من الحرث والنسل، أو ولولا أن الله تعالى ينصر المسلمين على الكافرين ، لفسدت الأرض بغلبة الكفار، وقتل الأبرار، وتخريب البلاد، وتعذيب العباد" [4]، قال السعدي: فساد الأرض باستيلاء الكفار عليها وإقامتهم شعائر الكفر، ومنعهم من عبادة الله تعالى

---

[1] البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (ت 685هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي– بيروت الطبعة الأولى ، 1418 هـ ، 152/1.

[2] ابن عطية ، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي (ت 542هـ) ،المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية– بيروت ، الطبعة الأولى، 1422 هـ ، 337/1.

[3] الرازي ، محمد ، مفاتيح الغيب 519/6.

[4] النسفي، عبدالله بن أحمد بن محمود ،(ت710هـ)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1419هـ–1998م.207/1.

وإظهار دينه[1]، قال طنطاوي :"ولولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق، لفسدت الأرض، وعمها الخراب؛ لأن أهل الفساد إذا تركوا من غير أن يقاوموا استطارت شرورهم، وتغلبوا على أهل الصلاح والاستقامة ، وتعطلت مصالح الناس، وانتشر الفساد في الأرض، فلولا في الجملة الكريمة حرف امتناع لوجود؛ أي: امتنع فساد الأرض لأجل وجود دفع الناس بعضهم ببعض" [2].

كما أن الفساد المقصود في الآية يشمل فساد الأرض وفساد الناس أنفسهم، قال ابن عاشور– رحمه الله – :" فساد الأرض إما فساد الجامعة البشرية كما دل عليه تعليق الدفاع بالناس، أي لفسد أهل الأرض، وإما فساد جميع ما يقبل الفساد، فيكون في الآية احتباك ، والتقدير: ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض وبقية الموجودات بعضها ببعض لفسدت الأرض؛ أي من على الأرض، ولفسد الناس "[3]، كما يختلف سياق الآية بحسب التراكيب القرآنية في قوله فسدت الأرض وفساد في الأرض،(ففساد الأرض ينصرف إلى فساد الأرض باختلال النظام الذي وضعه الخالق سبحانه لحياة البشر فوقها، الذي إذا اختل واضطرب، فسدت الأرض، وهذا مظهر من مظاهر الصراع، وهو الوضع الذي ينتج عن احتدام الصراع بين الحضارات والثقافات، أما الفساد في الأرض فينصرف إلى الفساد الذي ينتج عن أفعال البشر، وهو من طبائع الأشياء)[4].

مما تقدم يتبين أن من فضل الله وإحسانه على أوليائه وحكمته البالغة ، أن أمرهم بدفع أهل الفساد والإفساد، فلولا دفع أهل الباطل والفساد بأهل الحق والإصلاح ، لغلب أهل الباطل، وعم البغي والظلم، ولتسلطوا على الصالحين وأفسدوا دينهم ومعايشهم، فقد ختمت الآية بقوله تعالى : (

---

[1] انظر: السعدي ، عبدالرحمن ، تيسير الكريم الرحمن 108/1.

[2] طنطاوي ، محمد ، التفسير الوسيط 574/1.

[3] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير و التنوير 500/2.

[4] انظر: التويجري، عبدالعزيز بن عثمان، صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، السعودية ، ص8.

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ) إشعاراً بفضل الله –عز وجل– أن سن سنة إلهية تحفظ البلاد والعباد، وقد ذكر ابن عاشور أن في دفاع الناس بعضهم بعضا صدا للمفسد عن محاولة الفساد، واستشعاره بتأهب غيره لدفاعه يصده عن اقتحام مفاسد أخرى ، لذا فالله –عز وجل– قد أودع قوة الدفع وبواعثه في الدافع حفظا للأرض من الفساد، أي حفظ كل من على الأرض ودرءاً لاختلال نظام ما عليها [1]، قال طنطاوي: "لأنه وضع لهم هذا التنظيم الحكيم الذي أوجب فيه على المصلحين أن يدافعوا المفسدين، وأن يقاوموهم بالطريقة التي تمنع فسادهم ، ولو أدى ذلك إلى رفع السلاح في وجوههم، لأن السكوت عن فساد المفسدين سيؤدي إلى العقاب الذي يعمهم ويصيب معهم المصلحين"[2].

المطلب الثالث: تحقيق الأمن والنفع لجميع الأديان والطوائف

من سماحة الإسلام وعدالته حتى مع غير المسلمين ، أن شرع ما يحفظ الأديان والمعتقدات الأخرى، فالإسلام يحترم حرية اختيار الناس في المعتقد والدين، ويحث على التسامح مع معتنقي الأديان الأخرى، ويرفض التمييز على حسب الدين أو اللون أو الجنس ، وإن كان قد أمر بقتال الكفار ، وذلك لهدم أي عائق أمام انتشاره ووصوله للناس كافة ، وليكون الجميع تحت مظلته بلا سيطرة ودون إقصاء للطرف الآخر وإلغاء عقيدته ، ومنع مصادرة حرية معتقدات المسلمين وشرائعهم من قبل أي قوة غاشمة ، قال تعالى:﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج:40] ، " فهذا الصّدام القائم بين الهدى والضلال، وبين المهتدين والضّالّين، هو سنّة

---

[1] انظر : ابن عاشور ، محمد الطاهر ، التحرير والتنوير 503/2.

[2] طنطاوي ، محمد ، التفسير الوسيط 574/1.

من سنن الله ،التي أقام حياة الناس عليها، والتي كان من ثمارها أن قامت بيوت الله، وعمرت بالمؤمنين الذاكرين الله كثيرا فيها"[1] .

ذكرت الآية دور العبادة في الأديان السماوية المختلفة ؛ **فالصوامع** : جمع صومعة وهي موضع عبادة منعزل، عبارة عن بناء مستطيل مرتفع يصعد إليه بدرج وبأعلاه بيت، كان الرهبان يتخذونه للعبادة ليكونوا بعيداً عن مشاغلة الناس إياهم، وذلك لمن ألزم نفسه بشيء فوق ما كلفه الله به، فالذين يعبدون الله بهذه الطريقة يجلسون في أماكن بعيدة عن الناس يسمونها الصوامع، وهي التي بنوها في الصحارى ، والبيع لهم أيضا، وهي التي يبنونها في البلد ، وكانوا يوقدون بها مصابيح للإعانة على السهر للعبادة ولإضاءة الطريق للمارين، من أجل ذلك سميت الصومعة المنارة ، وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى ثم استعملت المنارة في مئذنة المسلمين ، والصوامع الآن هي ما يقابل الدير للنصارى [2].

والبيع: جمع بيعة ، وقيل أيضا هي مكان عبادة النصارى ويقصد بها كنيسة النصارى، وقيل اليهود، ولا يعرف أصل اشتقاقها، ولعلها معربة عن لغة أخرى ، فالكنائس والبيع لعامة المتدينين ، والتعبد في الصوامع لخاصة المتدينين، أي البيع للنصارى عامة وهي أوسع من الصوامع، أما **الصلوات:** جمع صلاة والمراد بها هنا هي كنائس اليهود وأماكن عبادتهم، وهي معربة عن كلمة

---

[1] الخطيب ، عبدالكريم ، التفسير القرآني للقرآن 1045/9.

[2] انظر: الطبري ، محمد ،جامع البيان 650/18؛ الزمخشري، محمود، الكشاف 160/3؛ الرازي ، محمد ، مفاتيح الغيب 229/23 ؛ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي (ت671هـ)، الجامع لأحكام القرآن ، (تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش)، دار الكتب المصرية – القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1384هـ – 1964 م، 71/12 ؛ الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (ت 875هـ)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، (المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود) ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1418 هـ ،127/4؛ قطب، سيد، في ظلال القرآن 2425/4؛ ابن عاشور،محمد ، التحرير والتنوير 277/17 ؛الشعراوي، محمد ، تفسير الشعراوي الخواطر 1061/2.

صلوثا أو صلوتا بالعبرانية ، وقيل هي بيوت تبنى للنصارى في البراري يصلون فيها في أسفارهم، وقيل الصلوات مساجد الصابئين، ، وسميت صلاة لأنه يصلى فيها ، **ومساجد:** أماكن العبادة للمسلمين ، لم يطلق هذا الاسم على أي دار للعبادة قبل الإسلام [1].

وقد ذكر المفسرون في تفسير الآية أنه لولا ظهور المسلمين على الكفار، عند مدافعتهم وقتالهم وامتثالهم لأمر المولى –عز وجل– في التدافع، لهدمت دور العبادة ولما تفرع العباد والنساك لعبادة الله –عز وجل– ، قال الزجاج :" لهدم في شريعة كل نبي المكان الذي كان يصلي فيه، فكان لولا الدفع لهدم في زمن موسى عليه السلام الكنائس التي كان يصلي فيها في شريعته، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد صلى الله عليه وسلم المساجد" [2]، قال الزمخشري :" لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم، وعلى متعبداتهم فهدموها، ولم يتركوا للنصارى بيعا، ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود صلوات، ولا للمسلمين مساجد، أو لغلب المشركون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين" [3]، وقال الرازي : " لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان، وعطلوا ما يبنونه من مواضع العبادة ، ولكنه دفع عن هؤلاء بأن أمر بقتال أعداء الدين ، ليتفرغ أهل الدين للعبادة وبناء البيوت لها، ولهذا المعنى ذكر الصوامع والبيع والصلوات وإن كانت لغير أهل الإسلام" [4].

---

[1] انظر: المصادر السابقة.

[2] الزجاج، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق (ت 311هـ) ، معاني القرآن وإعرابه، عالم الكتب– بيروت ، الطبعة الأولى ، 1408 هـ – 1988 م ،431/3.

[3] الزمخشري ، محمود، الكشاف 160/3.

[4] الرازي، محمد ، مفاتيح الغيب 229/23.

والغاية من تخصيص مواضع العبادة بالذكر في الآية ، للدلالة على أن الأمر بدفع أهل الباطل لحماية المعتقدات وصلاح الشرائع، إنما هو ليس بمستحدث في شريعة المسلمين ، بل تقدم ذكره في الأمم الماضية ، وورد في الشرائع السابقة لحفظ دور العبادة وحرية المعتقد بين الناس، قال القرطبي: "فمن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه ، إذ لولا القتال لما بقي الدين الذي يذب عنه " [1] ، وخصت بالذكر أيضا لكونها دور عبادة لأمم سابقة ذات دين وكتاب سماوي، قال ابن عطية : "ولم يذكر في هذه الآية المجوس ولا أهل الإشراك ، لأن هؤلاء ليس لهم ما يوجب حمايته ، ولا يوجد ذكر الله إلا عند أهل الشرائع"[2].

وقد ربط القرآن الكريم بين الدفع وبين حماية دور العبادة لجميع الأديان السماوية ، لأن بهدمها هدما للقيم والفضائل، وإفساد النفوس بانعدام الوازع الديني والرادع الأخلاقي ، وإذا ساءت أخلاق الناس فسدت حياتهم ففسدت الأرض، قال الشعراوي: " ستفسد الأرض إذا لم تقم الصوامع والبيع والصلوات والمساجد؛ لأنها هي التي تربط المخلوق بالخالق، وما دامت تلك الأماكن هي التي تربط المخلوق بالخالق فإن هدمت، يكون الناس على غير ذكر لربهم وتفتنهم أسباب الدنيا ، فالأديرة والكنائس والصوامع حين كانت والمساجد الآن هي حارسة القيم في الوجود، لأنها تذكرك دائما بالعبودية وتمنع عنك الغرور" [3].

مما سبق يتضح أثر الدفع الذي أمر الله به عباده ، ليأمن كل فرد على دينه ومعتقده وليتفرغ لعبادته، ففي تخريب دور العبادة فتنة وصرف العباد والنساك عن عبادتهم، كما يتأكد للآخرين أن من أخلاق المسلم احترامه للأديان ومعتنقيها ، وإنها من صميم عقيدته ، وهذا إن دل فإنه يدل على سماحة الإسلام وانفتاحه على بقية الأديان ، وتأكيداً لقاعدة لا إكراه في الدين، (والمتتبع لأدوار

---

[1] القرطبي ،محمد بن أحمد ، الجامع لأحكام القرآن 70/12.

[2] ابن عطية ، عبدالحق ، المحرر الوجيز 125/4.

[3] الشعراوي ، محمد ، تفسير الشعراوي الخواطر 1061/2.

التاريخ يرى أن المجتمع الإنساني لم يعرف السلام بسبب اختلافه في الدين ، فكانت كل جماعة لا تفتأ تثور على مخالفيها في العقيدة ، ولكن تمكن الإسلام من نزع الأحقاد الدينية من عقول متبعيه ، عندما جاء في القرآن الكريم بأن اختلاف الناس في معتقداتهم من سنن الله في خلقه ،قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود :118-119] ، فعلموا أنه يتوجب عليهم أن لا يحقدوا ويضطهدوا من يخالفهم في الدين ، وعلى هذا المبدأ ساروا في علاقتهم مع أهل الأديان الأخرى ، فكانوا يبيحون لأهل البلد الذي يفتحونه أن يبقوا على دينهم مع أداء الجزية ، وكانوا في مقابل ذلك يحمونهم ضد كل اعتداء، ولا يمسون عقائدهم و شعائرهم و معابدهم) [1]، فعلى سبيل المثال عندما فتح سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– القدس أعطى أهل إيليا " الأمان لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم، وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ،ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ، ولا شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود "[2] .

المطلب الرابع: الاستخلاف والتمكين

من ثمرات دفع أهل الحق لأهل الباطل وتغلبهم عليهم ، تحقق وعد الله –عز وجل – لأهل الحق باستخلافهم في الأرض وتمكينهم ، وتوليهم زمام الأحكام والسلطان المتمكن فيها ، يتصرفون فيها كتصرف الملوك أصحاب العزة والغلبة في ممالكهم ، لهدف أنبل ومحصلة أسمى وهو إعلاء كلمة الحق وراية الإسلام دون الخشية من إظهاره ، وتحكيم شرع الله –عز وجل– في الأرض

---

[1] انظر: طبارة، عفيف، روح الدين الإسلامي ص 280.

[2] الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت 310هـ) ، تاريخ الأمم والملوك ، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ، 1407هـ، 449/2.

وإقامة العدل الإلهي ، فهو نصر له تكاليف وأعباء وواجبات لا يدوم إلا بها، وإلا استبدلهم الله–عز وجل – بمن يستحق هذا الاستخلاف والتمكين ، وقد بشر النبي ﷺ أمته بالتمكين والغلبة ؛ قال ﷺ : (بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة، والدين والنصر والتمكين في الأرض)[1].

إن الإنسان خلق ووجد ليقوم بمهمة الاستخلاف في الأرض ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة:30]، ولا تكون هذه المهمة إلا لأوليائه أهل الحق قال تعالى:﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:124]، ونتيجة لدفع أهل الحق وانتصارهم على الباطل وأهله، يجعل الله لهم القوة والمنعة والهيبة التي تقذف الرعب في قلوب أعدائهم ، (فلا يتجرأ عليهم أحد أو يزحزحهم، وعليهم أن يعلموا أن الله ما مكنهم ونصرهم لذاتهم، وإنما ليقوموا بمهمة الإصلاح والعمل على تنقية الخلافة الإنسانية في الأرض، من كل ما يضعف صلاحها أو يفسده) [2].

وقد جاء الوعد بالاستخلاف في الآية الكريمة:﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:55] ، مشروطاً ومقروناً بقسم عظيم من الله –عز وجل– ، فهو وعد بمقابل تحقيق شروط الجماعة الناصرة لشرع الله ، من عقيدة صافية وعبادة مشروعة نقية من البدع ، ولا يرتبط بجيل دون الآخر أو بجماعة دون أخرى ، قال الزمخشري : القسم الملتقى باللام والنون في ليستخلفنهم محذوف تقديره: وعدهم الله ، وأقسم ليستخلفنهم ، أو نزل وعد الله في تحققه منزلة القسم، فتلقى بما يتلقى به

---

[1] ابن حنبل ، أحمد ، مسند أحمد ، مسند الأنصار حديث رقم (21220) ،أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين كتاب الرقاق حديث رقم (7862) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

[2] انظر : الشعراوي ، محمد ، تفسير الشعراوي الخواطر 9852/16.

القسم كأنه قيل: أقسم الله ليستخلفنهم)[1]، وقد وفى الله –عز وجل – بوعده لهذه الأمة ، عندما استوفت شروط الاستخلاف، من عقيدة صافية توجت بأعمال صالحة ، فقد أمتدت الفتوحات معظم البلدان وسادت حضارتها في مختلف العلوم ، والوعد بالإستخلاف في الأرض لا يختص بأحد بعينه بل هو عام ، قال القرطبي: "الآية عامة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم غير مخصوصة، إذ التخصيص لا يكون إلا بخبر ممن يجب له التسليم، ومن الأصل المعلوم التمسك بالعموم" [2]، وقال الشوكاني: أبعد من قال إنه خاص بالصحابة أو المهاجرين ، ولا وجه لذلك، لأن الإيمان وعمل الصالحات لا يختص بهم، بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة، ومن عمل بكتاب الله وسنة رسوله فقد أطاع الله ورسوله، ولأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وظاهر قوله: كما استخلف الذين من قبلهم كل من استخلفه الله في أرضه، فلا يخص ذلك ببني إسرائيل ولا أمة من الأمم دون غيرها [3] .

إن الخلافة لن تتحقق للمسلمين في الأرض ، ما لم تهذب أنفسهم بالفضائل وترتفع عن الرذائل، ويتمحص إيمانهم عن عقيدة صافية وأعمال خالصة لله وحده، ورغبة صادقة في إصلاح الأرض ومن عليها ، يقول المراغي : لا يرث الأرض ويملكها ، إلا من كان قادرا على إصلاحها والانتفاع بخيراتها، والاستفادة مما على ظاهرها وباطنها [4] ، ويؤكد سيد قطب ذلك فيقول : قد يغلب على الأرض كفار فجار ، يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالا ماديا، حين تفرغ قلوب المؤمنين من الإيمان الصحيح الدافع إلى العمل الصالح، وإلى عمارة الأرض، والقيام

---

[1] انظر : الزمخشري، محمود، الكشاف 251/3.

[2] القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن 299/12.

[3] انظر: الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله (ت 1250هـ) ، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب ، دمشق– بيروت ، الطبعة الأولى ، 1414 هـ، 55/4.

[4] انظر : المراغي ، أحمد بن مصطفى (ت 1371هـ) ،تفسير المراغي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي، مصر، الطبعة الأولى ، 1365 هـ – 1946 م ، 76/17.

بتكاليف الخلافة التي وكلها الله إليهم ، ولكن الوراثة الأخيرة للأرض هي للعباد الصالحين، الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح [1]، ويقول الشعراوي : إن الله يمكن للصالح من الأرض ليعمرها ولو كان كافرا؛ لأنه تعالى لا يحرم الإنسان ثمار عمله ، لكن عمارة الكفار للأرض وتمكينهم للحضارة سرعان ما تنقلب عليهم ، كالحضارات القديمة التي بادت ، مثل عاد وثمود وغيرهم، فليست عمارة الأرض اقتصاداً وطعاماً وشراباً وترفاً [2].

والغاية من استخلاف أهل الحق في الأرض ، والذي هو ثمرة من ثمرات دفع أهل الحق للباطل وأهله ، إنما هو لإصلاحها ونشر العدل ورفع الظلم والفساد، وتهذيب المجتمع والارتقاء به، وتحصينه من كل ما من شأنه أن يهبط به إلى دركات المخلوقات الأخرى، قال سيد قطب : الاستخلاف في الأرض ليس لمجرد الملك والقهر ، إنما على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير وتحقيق العدل ، لا الهدم والفساد والظلم ، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله من عقيدة وشريعة للبشرية ، كي تسير عليه وترتفع إلى مستوى الكمال اللائق بخليقة أكرمها الله ، لا الانحدار بها إلى مدارج الحيوان ، فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض بالبغي والجور، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان، فهؤلاء ليسوا بمستخلفين في الأرض [3].

أما التمكين الذي اختص به أهل الحق في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج:41]، فقد ذكر الطبري في تفسير الآية : أي وطنّا لهم في البلاد ونصرناهم على أعدائهم، فقهروا المشركين وغلبوهم عليها ، وأطاعوا الله فأقاموا الصلاة بحدودها، وأعطوا زكاة أموالهم من جعلها الله له ،

---

[1] انظر : قطب، سيد، في ظلال القرآن 2400/4.

[2] انظر : الشعراوي، محمد، تفسير الشعراوي الخواطر 9667/16.

[3] انظر: قطب ،سيد، في ظلال القران 2529/4.

ودعوا الناس إلى توحيد الله والعمل بطاعته ، ونهوا عن الشرك بالله والعمل بمعاصيه، الذي ينكره أهل الحقّ والإيمان بالله [1]، والمقصود من التمكين في الأرض الذي تشير إليه الآية الكريمة ، هو السلطة ونفاذ القول على الخلق ، ولا يقصد به أصل القدرة وإلا لكان كل العباد كذلك، وحينئذ يبطل ترتب الأمور الأربعة المذكورة عليه ، لأنه ليس كل من كان قادرا على الفعل أتى بهذه الأشياء [2]، والممكَّن في الأرض هو الذي أعطاه الله البأْس والقوة والسلطان، يستطيع أنْ يفرض على مجتمعه ما يشاء، حتى إنْ مُكِّن في الأرض بباطل ، يستطيع أنْ يفرض باطله ويُخضِع الناس له، ولو إلى حين[3] .

وأما تمكين الدين الذي أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى :﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:55]، فيقصد به: تثبيته وتوطيده [4]وإظهاره على كل دين[5]، يعلو شأنه وتقوى بتأييد الله –عز وجل – أركانه، ويعظم أهله في نفوس أعدائهم الذين يستغرقون النهار والليل في التدبير لإطفاء أنواره، ويستنهضون الرجل والخيل للتوصل إلى إعفاء آثاره [6]، ليكون مرفوع اللواء،

---

[1] انظر: الطبري ، محمد بن جرير، جامع البيان 651/18.

[2] انظر : الرازي، محمد ، مفاتيح الغيب 23/ 230.

[3] الشعراوي، محمد، تفسير الشعراوي الخواطر 9852/16.

[4] الزمخشري ، محمود ، الكشاف 251/3.

[5]الجوزي، عبدالرحمن ، زاد المسير 304/3.

[6] الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (ت 1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المحقق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى، 1415هـ، 394/9.

ظاهرا على غيره، قاهرا لمن ناوأه [1]، وقد عبر عن ذلك كله بالتمكين ، قال الآلوسي:" للدلالة على كمال ثبات الدين ، ورصانة أحكامه وسلامته عن التغيير والتبديل ، لابتنائه على تشبيهه بالأرض في الثبات والقرار" [2] ، قال ابن عاشور:" استعير التمكين الذي حقيقته التثبيت والترسيخ ، لمعنى الشيوع والانتشار ، لأنه إذا انتشر لم يخش عليه الانعدام ، فكان كالشيء المثبت المرسخ " [3] ، ومن مظاهر تمكين الدين أن يعمل بشرائعه وتوجيهاته فيكون مرجعاً لهم، قال أبو السعود:" يستمرون على العمل بأحكامه ، ويرجعون إليه في كل ما يأتون وما يذرون " [4]، ويكون هذا الدين دستور حياة، فلا يعطل ولا يركن ، أو ينفصل عن الواقع في جميع أمور الدنيا والدين، " لا يكون دينا معطلا كما نعطله نحن اليوم، تمكين الدين يعني توظيفه وقيامه بدوره في حركة الحياة تنظيما وصيانة " [5].

وأغراض التمكين التي ذكرت في الآية الكريمة ، وحصرت بهذه الواجبات الأربعة ، لكونها سبباً لدوام تأييد الله – عز وجل – لأوليائه ونصرته ، وكذلك لكونها أركان مهمة تقوم عليها الدول ويدوم ملكها ، ذكر ابن عاشور أسباب تخصيص هذه الواجبات بقوله :" فأما إقامة الصلاة فلدلالتها على القيام بالدين وتجديد لمفعوله في النفوس، وأما إيتاء الزكاة فهو ليكون أفراد الأمة متقاربين في نظام معاشهم، وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلتنفيذ قوانين الإسلام بين سائر الأمة من تلقاء أنفسهم " [6] ، ثم يقول: " الكلام مسوق للتنبيه على الشكر على نعمة النصر، بأن يأتوا بما

---

[1] القاسمي ، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم (ت: 1332هـ)، محاسن التأويل ،(المحقق: محمد باسل عيون السود)، دار الكتب العلمية– بيروت ، الطبعة الأولى ، 1418 هـ ، 403/7.

[2] الآلوسي، محمود بن عبدالله ، روح المعاني، 394/9.

[3] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير 287/18.

[4] أبو السعود، محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم 191/6.

[5] الشعراوي، محمد، تفسير الشعراوي الخواطر 10324/17.

[6] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير 280/17.

أمر الله به من أصول الإسلام ، فإن بذلك دوام نصرهم، وانتظام عقد جماعتهم، والسلامة من اختلال أمرهم، فإن حادوا عن ذلك فقد فرطوا في ضمان نصرهم وأمرهم إلى الله "[1] .

يختلف حال أهل الحق عندما ينصرهم الله ويمكن لهم في الأرض، وتكون لهم القوة والغلبة ، عن حال أهل الباطل عند تمكنهم وتغلبهم واستقوائهم على الآخر، فأهل الحق يقومون بواجبات وأغراض هذا التمكين ، شكرا لله وعرفانا أن من عليهم بهذا النصر، بامتثالهم لأوامره وتوثيقهم لصلتهم به طاعة وخضوعا وإخلاصا، وإقامة الصلاة بشروطها ومواقيتها ، وتقديم زكاة أموالهم للمحتاجين من إخوانهم ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ودفعوا الفساد ، قال عبدالكريم الخطيب: إنهم لن يكونوا على شاكلة هؤلاء الضالّين ، الذين كانت إلى أيديهم القوة والسلطان، فتسلطوا على عباد الله ، ورهقوهم وأخذوهم بالبأساء والضراء، فحين يمكّن الله لهم في الأرض، سيكونون رحمة للإنسانية كلها، بما يقيمون فيها من موازين الحق والعدل[2].

وقد أخبر الله – عز وجل – أنه قد كتب في الزبور وراثة أوليائه الأرض ، بالتمكين فيها عند تغلبهم على أهل الباطل ، بأن تؤول إليهم السلطة والتملك ، لأن لفظ يرث يدل على انتقال ملكية من مالك إلى مالك آخر، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء:105]، واختلف في تحديد معنى الزبور؛ قيل: هو زبور داود عليه السلام، وقيل : جميع الكتب المنزَلة من السماء، وقيل: القرآن [3] ، والأرجح أن الزبور هو كتاب سيدنا داوود عليه السلام لقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ

---

[1] المصدر السابق 280/17.

[2] انظر : الخطيب، عبدالكريم، التفسير القرآني للقرآن 1047/9.

[3] انظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان 547/18؛ البغوي، الحسين، معالم التنزيل 320/3؛ الزمخشري، محمود، الكشاف 138/3؛ الجوزي، عبدالرحمن، زاد المسير 217/3؛ الرازي، محمد، مفاتيح الغيب 192/22.

وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء:55] ، قال الشنقيطي: " كتبنا في الكتب المنزلة على الأنبياء أن الأرض يرثها عبادي الصالحون بعد أن كتبنا ذلك في أم الكتاب، وهذا المعنى واضح لا إشكال فيه"[1] ، قال ابن كثير: " إن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية والقدرية فهو كائن لا محالة " [2] ، أي هو وعد متحقق لا محالة لمن التزم بشروطه، وعام لأهل الحق في كل زمن ومكان ، بدليل أنه قد بشر به في جميع الكتب السماوية السابقة ، لجميع قوى الحق والمدافعين عنه ، بأن السلطان وتولي زمام الأمور سيكون بأيديهم .

وتخصيص ذكر هذا الوعد في كتاب سيدنا داوود –عليه السلام – ، لأنه لم يذكر وعد مثله في الكتب السماوية قبله، والغاية من تخصيص الزبور للشهادة على هذا الوعد في بقية الكتب التي جاءت من بعده وقبل نزول القرآن الكريم ، قال ابن عاشور: " تخصيص هذا الوعد بكتاب داوود لأنه لم يذكر وعد عام للصالحين بهذا الإرث في الكتب السماوية قبله"[3]، ويقول أن المقصود هو: " الشهادة على هذا الوعد من الكتب السالفة، وذلك قبل أن يجيء مثل هذا الوعد في القرآن "[4][5].

وفي المراد بالآية قال الزمخشري :"أي يرثها المؤمنون بعد إجلاء الكفار"[6]، و إجلاء الكفار يتمثل بوجهين ؛ أن تكون القيادة والتصرف والسلطان على الأرض لأهل الحق ، أو بقتالهم ودفعهم والانتصار عليهم والسيطرة على أراضيهم، فتكون كلمة الله هي العليا ويظهر دينه على سائر

---

[1] الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني (ت 1393هـ) ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان ، 1415 هـ – 1995 مـ ، 249/4.

[2] ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم 384/5.

[3] ابن عاشور ، محمد الطاهر، التحرير والتنوير 162/17.

[4] يقصد جاء هذا الوعد في القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ النور :55].

[5] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير 162/17.

[6] الزمخشري، محمود، الكشاف 138/3.

الأديان ، قال الآلوسي:" وعد منه تعالى بإظهار الدين ، وإعزاز أهله واستيلائهم على أكثر المعمورة التي يكثر تردد المسافرين إليها ، وإلا فمن الأرض ما لم يطأها المؤمنون " [1] ، وقد بشر رسول الله ﷺ أمته ، أنهم سيملكون الأرض بما قدر الله لهم ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم: (إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها)[2] .

المطلب الخامس: تمييز المؤمنين وتمحيص الصادقين واصطفاءالشهداء

من ثمرات دفع أهل الحق لأهل الباطل ، سواء كانت الغلبة لأهل الحق أو لعدوهم ، هو تمييز صفوف المسلمين وغربلتها ممن لحق بهم من المنافقين أتباع الباطل، وتمحيص القلوب المخلصة في نشر دعوة الحق بترسيخ العقيدة الصادقة وتنقيتها من أي شوائب ، واصطفاء الشهداء منهم للفوز بأعلى المراتب برفقة الأنبياء والصديقين ، قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران140 :142] ، نزلت هذه الآيات الكريمة في سياق الآيات التي نزلت في غزوة أحد [3]، في أعقاب حدث عظيم اهتز له المسلمون لما تبعثرت صفوفهم أمام أهل الباطل، فأرشدهم الله تعالى إلى أن ذلك كان بتقديره وحكمته، وليستخلصوا الدروس والعبر في دفعهم لأهل الباطل إلى أن يلاقوا الله تعالى .

---

[1] الآلوسي، محمود بن عبدالله ، روح المعاني، 98/9.

[2] مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب هلاك الأمة بعضهم ببعض، حديث رقم (2889).

[3] انظر : الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد ، (ت 468هـ) ، أسباب نزول القرآن ، الطبعة الثانية ، عدد الأجزاء: 1، (المحقق : عصام بن عبدالمحسن الحميدان)، دار الإصلاح، الدمام، 1412هـ/ 1992م، 124/1.

وأشارت هذه الآيات إلى جملة من الحكم المترتبة على تدافع أهل الحق وأهل الباطل ، ومداولة النصر بينهما ؛ الحكمة الأولى تمييز الصفوف عن المؤمن الصادق ومدعي الإيمان، ويتضح أمره عيانا للناس، وإلا فالله أعلم بما في الصدور ، قال الطبري : "وليختبر الله الذين صدقوا الله ورسوله، فيبتليهم بإدالة المشركين منهم، حتى يتبين المؤمن منهم المخلص الصحيح الإيمان، من المنافق"[1]، قال ابن القيم : فإنهم لو انتصروا دائما دخل معهم المسلمون وغيرهم، ولم يميز الصادق من غيره ، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاءوا به، ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة ، ويعلمهم علم رؤية ومشاهدة ، فهم مميزون في غيبه وعلمه، ولكنه سبحانه يريد أن يميزهم تمييزا مشهودا أمام الجميع ، قال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ [آل عمران:179] [2] ، ففي حالة النصر يدخل الكل في جموع المنتصرين، وفي حالة الهزيمة تتكشف الساحة عن الأعداء المندسين والمنافقين، قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت2 :3]، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ [آل عمران:167].

نقل صاحب المنار عن شيخه محمد عبده تعليقه على قوله تعالى (وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) و (وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ): إن العبارة ظاهرة الصحة، وإيهام تجدد العلم الإلهي مدفوع، ولكن ما

---

[1] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان 244/7.

[2] انظر : ابن القيم ، محمد، زاد المعاد في هدي خير العباد 196/3.

النكتة في اختيار هذه العبارة وأمثالها ، ولم لم يبين المراد بعبارة لا إبهام فيها؟ فيجيب بالقول : النكتة بيان أن العلم إذا لم يصدقه العمل لا يعتد به ، ويوضح محمد رشيد رضا قول شيخه فيقول: وبيان ذلك أن الإنسان كثيرا ما يتصور الشيء، ويحكم بصحته فيرى أنه يعتقده، ولكن في الواقع العملي يتبين له كذبه في اعتقاده ، وإنما كان صورة انطبعت في مخه مع الغفلة عما يعارضها من سائر عقائده المتمكنة ، كمن تحدثه نفسه بأنه لقوة إيمانه عظيم الثقة بالله والتوكل عليه، حتى تظهر الحوادث والوقائع أنه هلوع إذا مسه الشر كان جزوعا، وإذا مسه الخير كان منوعا، لا يثق بربه ولا بنفسه [1] ، ويقول: " فالناس قبل الابتلاء بالمحن والفتن يكونون سواء، فإذا ابتلوا تبين المخلص والصادق والظالم والمنافق، وما أسهل ادعاء الإخلاص والصدق إذا كانت آياتهما مجهولة، فبيان السبب مؤدب للمقصرين وقاطع لألسنة المدعين " [2].

من الحكمة في مداولة النصر وتمايز الصفوف إقامة الحجة على من لم يصدق إيمانه عمله وعليه يترتب الجزاء والثواب ، قال الشعراوي: " حين يبرز علم الله إلى الوجود أمامنا في المواقف والشدائد ، فإنه علم تقوم به الحجة واضحة على من آمن، وعلى من لم يحسن الإيمان المتخاذل مدعي الصمود في المواجهة ، فالتغيير هنا لا يكون في علم الله، بل في المعلوم لله، وليس في العالم بل في المعلوم بحيث نراه حجة علينا [3] ، قال طنطاوي: " لأن العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وإنما يترتبان على المعلوم إذا صار مشاهدا واقعا في الحس " [4] .

والحكمة الثانية التي وجهت إليها الآيات في دفع أهل الحق ، وثمرة أخرى من ثمرات هذا التدافع ، اصطفاء الشهداء للفوز بما أعده الله لهم من نعيم ورفقة الأنبياء والصالحين لقوله

---

[1] انظر : رضا، محمد رشيد، تفسير المنار 123/4.

[2] المصدر السابق 124/4.

[3] انظر : الشعراوي، محمد ، تفسير الشعراوي الخواطر 1783/3.

[4] طنطاوي، محمد ، التفسير الوسيط 276/2.

تعالى:(وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ) ، قال الطبري :" أي ليكرم منكم بالشهادة من أراد أن يكرمه بها " [1]، وزاد الزمخشري :" أو وليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة بما يبتلى به صبركم من الشدائد، من قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[البقرة: 143]" [2]، يرى الزمخشري أن لفظ الشهادة يحتمل أحد معنيين، أحدهما: الموت في سبيل الله ، والثاني: من الشهادة على الناس، والمعنى الأول هو الأنسب لموافقته لسياق الآيات ، التي تتحدث عن غزوة أحد وما ترتب عليها من أحداث ، يقول ابن القيم : " الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقربون من عباده، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة، وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء تراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه و محابه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو"[3] .

وفي لفظة (يتخذ) إشارة لعظم شأن من وقع عليه الاختيار، لنيل المنزلة العالية منزلة الشهيد، التي يبذل المسلم أغلى ما يملك للفوز بها ، قال أبو السعود: " في لفظ الاتخاذ المنبئ عن الاصطفاء والتقريب من تشريفهم وتفخيم شأنهم مالا يخفى" [4]، قال السعدي: " لأن الشهادة عند الله من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها، فهذا من رحمته بعباده المؤمنين ، أن قيَّض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس، لينيلهم ما يحبون من المنازل العالية والنعيم المقيم" [5] .

يقول سيد قطب : وهو تعبير عجيب عن معنى عميق، إن الشهداء لمختارون من بين

---

[1] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان 243/7.

[2] الزمخشري، محمود، الكشاف 420/1.

[3] ابن القيم، محمد، زاد المعاد في هدي خير العباد 199/3.

[4] أبو السعود، العمادي محمد بن محمد بن مصطفى،(ت 982هـ) ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت ، 90/2.

[5] السعدي، عبدالرحمن، تيسير الكريم الرحمن 149/1.

المجاهدين تكريما لهم ، ليستخلصهم لنفسه ويخصهم بقربه، و يستشهدهم على هذا الحق الذي بعث به للناس، فيؤدون الشهادة بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق، وتقريره في دنيا الناس، على أن ما جاءهم من عنده هو الحق، فآمنوا به وتجردوا له، وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء دونه ، وعلى أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق، وعلى أنهم هم استيقنوا هذا، فلم يألوا جهداً في كفاح الباطل وطرده من حياة الناس ، وإقرار هذا الحق في عالمهم، وتحقيق منهج الله في حكم الناس [1] ، وفي اختيار لفظ الاتخاذ أيضا تحفيز للمقاتلين ليبذلوا في سبيل الله أرواحهم كما بذلها من سبقهم من إخوانهم ونالوا هذه المنزلة ، قال القاسمي: " ليكونوا مثالا لغيرهم في تضحية النفس شهادة للحق، واستماتة دونه، وإعلاء لكلمته، وهو تعالى يحب الشهداء من عباده، وقد أعدّ لهم أعلى المنازل وأفضلها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بد أن ينيلهم درجة الشهادة "[2].

أما الحكمة الثالثة التي أشارت اليها الآيات في المداولة والمدافعة بين أهل الحق وأهل الباطل، فهي تمحيص[3] المؤمنين بتنقية الشهداء منهم من ذنوبهم ، والأحياء من منافقيهم المندسين بينهم بإظهار خفايا صدورهم ، ومحق[4] الكافرين باستئصالهم منعا لطغيانهم وبطرهم وبغيهم [5] ،

---

[1] انظر : قطب، سيد، في ظلال القرآن 481/1.

[2] القاسمي، محمد، محاسن التأويل 419/2.

[3] التمحيص من المَحْصُ: "خلوص الشَيء، محصته محصا: خَلصته من كل عيب ، والتمحيص: التطهير من الذنوب" الفراهيدي، الخليل ، العين 127/3، "ومحص الذهب بالنار خلصه مما يشوبه ، ومن المجاز محص الله التائب من الذنوب، ومحص قلبه وتمحصت ذنوبه وتمحصت الظلماء تكشفت " الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، (ت 538هـ)، أساس البلاغة، (تحقيق: محمد باسل عيون السود) ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، 1419 هـ – 1998 م ، 195/2.

[4] يمحق من محق :" محقه الله فانمحق وامتحق: أي ذهب خيره وبركته ونقص" الفراهيدي، الخليل، العين 56/3.

[5] الفرق بين المحص والمحق هو" التمحيص فيه محو الآثار وإزالة الأوضار كما أن المحق عبارة عن النقص والإذهاب " أبو السعود، محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم 91/2، " التمحيص هو تطهير الأشياء وتخليصها من العناصر الضارة، أما المحق فهو الذهاب بها كلها " الشعراوي، محمد، تفسير الشعراوي الخواطر 1785/3.

قال الزمخشري " إن كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز والاستشهاد والتمحيص، وإن كانت على الكافرين، فلمحقهم ومحو آثارهم "[1] ، وقال ابن عطية: " يمحص المؤمنين إذا أدال عليهم، بأنه ينقي المتشهدين من ذنوبهم، وينقي الأحياء من منافقيهم إذ يميزهم، وأنه يمحق الكافرين إذا نصر عليهم أي ينقصهم "[2]، وقال ابن كثير: " يكفر عنهم من ذنوبهم، إن كان لهم ذنوب وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به، ويمحق الكافرين فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا، فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم" [3] .

فالتمحيص فضل من الله على عباده وأوليائه، أمرهم بالقتال والتدافع لتتهذب النفوس وتتنقى القلوب من أدران مخالطة الدنيا وشهواتها، قال ابن القيم : إن القلوب يخالطها بغلبات الطبائع وتزيين الشيطان ، ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والتقوى، فلو تركت في عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة، فاقتضت حكمته أن قيض لها من المحن ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء ، إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده، وإلا خيف عليه منه الفساد والهلاك [4] ، قال سيد قطب : التمحيص عملية تتم في داخل النفس لكشف مكنونات النفس البشرية، لإخراج الشوائب وتركها نقية مستقرة على الحق، وكثيراً ما يجهل الإنسان حقيقة نفسه، ضعفها وقوتها وما استكن فيها من رواسب، لا تظهر إلا بمثير، وفي هذا التمحيص الذي يتولاه الله– سبحانه– بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء، يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير.[5]

---

[1] الزمخشري، محمود، الكشاف 420/1.

[2] ابن عطية، عبدالحق، المحرر الوجيز 514/1.

[3] ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم 127/2.

[4] انظر: ابن القيم ، محمد ، زاد المعاد في هدي خير العباد 213/3.

[5] انظر : قطب ، سيد، في ظلال القرآن 482/1.

ولا يقتصر محق أهل الباطل بنقص عددهم وهلاكهم ، بل قد يشمل هزيمتهم وانهزام روحهم المعنوية وتقهقرهم عن القتال ومواصلته، قال محمد رشيد رضا : وأما محق الكافرين بالشدائد فليس معناه فناءهم وهلاكهم، بل ليسيطر عليهم اليأس، ويذهب بعزائمهم لعدم الإيمان الذي يثبت قلوب أصحابه في الشدائد، وذلك محق معنوي تكون عاقبته المحق الصوري، كذلك لا يثبت للكافرين المبطلين وجود مع المؤمنين الصادقين، وإنما يبقون ظاهرين إذا لم يظهر من أهل الحق والعدل من ينازعهم ويقاوم باطلهم [1] .

[1] انظر : رضا، محمد رشيد، تفسير المنار 125/4.

الفصل الثاني

قواعد التدافع من القرآن الكريم

- **ويشتمل على المباحث الآتية:**

المبحث الأول: قواعد تتعلق بالتدافع بين الحق والباطل.

المبحث الثاني: قواعد تتعلق بالحق وأهله.

المبحث الثالث: قواعد تتعلق بالباطل وأهله.

المبحث الأول: قواعد تتعلق بالتدافع بين الحق والباطل

المطلب الأول: حتمية التدافع بين الحق والباطل

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود :118-119]، خلق الله –عز وجل– المخلوقين وقدر بينهم الاختلاف ، نتيجة تعدد الأديان والعقائد والآراء والطبائع والأفكار، ولو شاء لاجتمعوا على الحق، ولكن تعددت المشارب والمسارات واختلفت ، قال الزمخشري: (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة)، يعنى لاضطرهم إلى أن يكونوا أهل ملة واحدة وهي ملة الإسلام، ولكنه لم يضطرهم إلى الإتفاق على دين الحق، بل مكنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف ، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل فاختلفوا، فلذلك قال (ولا يزالون مختلفين)[1] ، قال أبو السعود : أي لجعلهم أمة واحدة مجتمعة على الحق ودين الإسلام، فلا يكاد يختلف فيه أحد، ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا متفقين على الحق، فمنهم من هداهم إليه ، ومنهم لا يزالون مخالفين له ، وحمله على مطلق الاختلاف الشامل لما يصدر من المحق والمبطل [2].

وترتب على هذا الاختلاف التدافع والتصادم، وهو نتيجة طبيعية حتمية ؛ إذ لا ارتباط أو انسجام بين شيئين مختلفين فضلا عن كونهما متضادين ، مما ترتب عليه حتمية التدافع بينهما وإن استبطأ أحدهما عن ملاحقة الآخر ومدافعته ، فإن الآخر لن يدخر جهدا في دفعه ،(والضدان لا يجتمعان ، ولأن تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر وطرده ودفعه وإزالته ، أو على الأقل إضعافه، ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة ، فلا يُتصوَّر إذن أن يعيش الحق والباطل في سلم ، من دون غلبة أحدهما على الآخر إلا لعلة ، كضعف أصحابهما أو جهلهم بمعاني الحق

---

[1] انظر : الزمخشري ، محمود، الكشاف 438/2.

[2] انظر: أبو السعود، محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم 248/4.

والباطل ومقتضيات لوازمهما ، أو ضعف تأثير هذه المعاني فيهم [1] .

فالصراع بين الحق والباطل أمر محتوم ؛ لأنه مرتبط بسنة ربانية، والسنة لا تتخلف لها قواعدها بمعنى أنها حتمية قدرية لا تتخلف، بالإضافة إلى أن طبيعة اختلاف البشر تقتضي هذا التنازع [2]، يقول ابن خلدون: "ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض"[3]، ويقول:" وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات، ومد كل واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه، لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض، ويمانعه الآخر عنها بمقتضى الغضب والأنفة ومقتضى القوة البشرية في ذلك، فيقع التنازع المفضي إلى المقاتلة"[4] .

ولولا هذا الاختلاف لما كان من تشريع الأحكام التي تعالج وتنظم حياة الأفراد ، سواء أفراد الأمة الإسلامية أو غيرهم من الأمم، كالأحوال الشخصية وأحكام القضاء والجهاد وغيرها، ولما كان من ترغيب البشر بالثواب وترهيبهم بالعقاب في القرآن الكريم أدنى أثر، قال السعدي : "وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، ولتقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء"[5] ، قال ابن عاشور: حكمة الله اقتضت هذا الاختلاف بين البشر، لأن ذلك أوفى بإقامة مراد الله تعالى من مساعي البشر في هذه الحياة الدنيا ، لينتقلوا منها إلى عالم الحياة الأبدية إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وإلا لما كان العمل الصالح مقتضيا ثواب النعيم ولا كان الفساد مقتضيا عقاب الجحيم [6] ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [النحل:93] .

---

[1] انظر : زيدان، عبدالكريم، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد ص 46.

[2] تناولت الباحثة هذه الجزئية بالتفصيل في مبحث " المفهوم القرآني للتدافع ".

[3] ابن خلدون ، عبدالرحمن، مقدمة ابن خلدون 98/1.

[4] المصدر السابق 95/1.

[5] السعدي، عبدالرحمن، تيسير الكريم الرحمن 392/1.

[6] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير 188/12.

قال محمد رشيد رضا : لو خلق الله البشر لا اختلاف بينهم ولا رأي لهم ، لكانوا في حياتهم الاجتماعية كالنحل أو النمل، وفي حياتهم الروحية كالملائكة مفطورين على اعتقاد الحق وطاعة الله – عز وجل – فلا يقع بينهم اختلاف، ولكنه خلقهم عاملين بالاختيار لا مجبورين، فظهر استعدادهم للاختلاف والتنازع فاختلفوا[1].

أكد القرآن الكريم سنة الله ومشيئته وإرادته من اختلاف الناس بأكثر من موضع للتنبيه على الحكمة من ذلك، بالإضافة إلى تسلية أوليائه أتباع الحق ، الحريصين على نشره ورفع رايته ، بأن لا يتسرب اليأس إلى نفوسهم ، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس:99] ، وكما أن الاختلاف بتقدير الله وحكمته ، فكذلك القتال المترتب على هذا الاختلاف ، إنما هو أيضا بتقديره وحكمته، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:253] ، قال ابن عطية :" إنما اختلف الناس بعد كل نبي، فمنهم من آمن ومنهم من كفر بغيا وحسدا وعلى حطام الدنيا، وذلك كله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى، ولو شاء خلاف ذلك لكان، ولكنه المستأثر بسر الحكمة في ذلك الفعال لما يريد، فاقتتلوا بأن قاتل المؤمنون الكافرين على مر الدهر، وذلك هو دفع الله الناس بعضهم ببعض"[2]، ولو شاء الله – عز وجل– أن ينصرهم دون مباشرة القتال بأنفسهم وبذل الأسباب لانتصروا ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

---

[1] انظر : رضا، محمد رشيد، تفسير المنار 160/12.

[2] ابن عطية ، عبدالحق، المحرر الوجيز 339/1.

[محمد:4] ، قال الشوكاني: " قادر على الانتصار منهم بالانتقام منهم وإهلاكهم ، وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب ، ولكن أمركم بحربهم ليختبر بعضكم ببعض ، فيعلم المجاهدين في سبيله والصابرين على ابتلائه ، ويجزل ثوابهم ويعذب الكفار بأيديهم " [1]، أي لو شاء الله –عز وجل – إهلاكهم لأهلكهم، ولكنه ربط الأسباب بالمسببات، فأمر المسلمين بقتالهم ليختبر بعضهم ببعض ويمحصهم ، ويتميز بهذا الاختبار قوي الإيمان من ضعيفه ، كقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد:31] .

قال سيد قطب : ولو شاء الله لانتصر من الكافرين بالطوفان والصيحة والريح العقيم، أو من غير هذه الأسباب كلها، ولكنه إنما يريد لعباده المؤمنين أن يبتليهم ويربيهم ويصلحهم ، فليس أكرم في النفس من أن يعز عليها الحق الذي تؤمن به، حتى تجاهد في سبيله فتقتل وتقتل، ويظل يخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة في أعراض هذه الأرض الفانية، ويظل يقوي في نفوسهم كل ضعف ويكمل كل نقص، حتى تصبح رغائبهم كلها في كفة، وفي الكفة الأخرى تلبية دعوة الله للجهاد، والتطلع إلى رضا الله. [2]

المطلب الثاني: استمرارية سعي الباطل في دفع الحق

يسعى أهل الباطل بشتى الطرق والوسائل ، بأموالهم وسلطانهم لإقصاء الحق وأهله، لتخلو الساحة لهم ولباطلهم، ففي وجود الحق وتماسكه إضعاف للباطل، وهذا ما لا يريده أهل الباطل ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة:217] ، قال الزمخشري :" ولا يزالون يقاتلونكم إخبار عن دوام عداوة الكفار للمسلمين، وأنهم لا ينفكون عنها

---

[1] الشوكاني، محمد ، فتح القدير 38/5.

[2] انظر : قطب، سيد، في ظلال القرآن 3286/6.

حتى يردوهم عن دينهم" [1] ، ففي الآية دلالة على استمرار طلب أهل الباطل لدفع أهل الحق وإضعافهم والقضاء عليهم، أو أن يتنازلوا عن اتباع الحق والدفاع عنه، " وأن أولئك المشركين لا همَّ لهم إلا منع الإسلام من الأرض، فترك قتالهم هو الذي يبيد الحق وأهله، وانتظار إيمانهم بمجرد الدعوة، طمع في غير مطمع" [2]، قال ابن عاشور: " فتنتهم وقتالهم يدوم إلى أن يحصل غرضهم وهو أن يردوكم عن دينكم" [3].

وقال تعالى :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال:36]، قال الآلوسي : "وفي تكرير الإنفاق في الشرط والجزاء الدلالة على كمال سوء الإنفاق " [4] ، كذلك في التعبير بالمضارع دلالة على الاستمرار والتجدد (يُنفِقُونَ) ، أي مستمرون في مقاومة الحق والكيد له لا يدخرون جهدا في ذلك ، "وهذا هو شأن الباطل وقوته ، تطغيه هذه القوة، فتدفعه إلى إزالة الحق وأهله ولو بالقوة " [5] .

ينبه الله – عز وجل– أوليائه إلى كيد أهل الباطل في النيل من الحق، وسعيهم الحثيث في ذلك؛ بقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة:32] ، قال الزمخشري: " مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق، يريد الله أن يزيده

---

[1] الزمخشري، محمود، الكشاف 259/1.

[2] رضا ، محمد رشيد ، تفسير المنار 253/2.

[3] ابن عاشور ، محمد الطاهر، التحرير والتنوير 331/2.

[4] الآلوسي، محمود بن عبدالله ، روح المعاني 191/5.

[5] زيدان ، عبدالكريم، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد ص 46.

ويبلغه الغاية القصوى في الإشراق أو الإضاءة، ليطفئه بنفخه ويطمسه"[1] ، ولكن الله –عز وجل – يؤكد فشل مساعيهم في تآمرهم على الحق، وكذلك عبر بالمضارع (يريدون أن يطفئوا) لبيان استمرار منهج التآمر حول الحق وأهله، قال محمد رشيد رضا: ويأبى الله إلا أن يتم نوره، وعد بأن يتمه في الاستقبال، ولما كان هذا الوعد الذي يتعلق بالمستقبل المغيب عن علم الخلق ، من شأنه أن يرتاب فيه الناس، أكده الله تعالى؛ لأن صدقه مشاهد لا يحتاج إلى التأكيد، والآية تشعر بأن هؤلاء الكافرين الكارهين له سيحاولون في المستقبل إطفاء هذا النور، كما حاولوا ذلك في عصر من أتمه وأكمله بوحيه إليه وبيانه له [2] .

و قال تعالى :﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة:64]، قال ابن كثير: " كلما عقدوا أسبابا يكيدونك بها، وكلما أبرموا أمورا يحاربونك بها، يبطلها الله ويرد كيدهم عليهم، ويحيق مكرهم السيء بهم، من سجيتهم أنهم دائما يسعون في الإفساد في الأرض" [3] ، يتضح مما تقدم سعي أهل الباطل المستمر للنيل من الحق وأهله ، لذا فالواجب على المسلمين أن يكونوا على حذر من كيد الكائدين بالحق ، فلا يركنوا إلى الراحة عن دفع الباطل ، وصد أهله باللسان واليد وكل الوسائل المتاحة.

المطلب الثالث: عدم ارتباط التدافع بقلة أو كثرة

تنزلت طائفة من الآيات على المسلمين في صدر الإسلام ، لتعالج المواقف التي مروا بها في الغزوات، وتبين لهم حقيقة أن النصر لا يتحقق بالعدة والعتاد ، وإنما ينتصرون بعقيدتهم

---

[1] الزمخشري، محمود، الكشاف 265/2.

[2] انظر: رضا ، محمد رشيد، تفسير المنار 337/10.

[3] انظر: ابن كثير ، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم 147/3.

وطاعتهم لله –عز وجل – للفوز بنصره وتأييده ، فالأسباب الحقيقية للنصر هي بثبات عقيدتهم وإيمانهم وتقواهم ، بامتثالهم لتوجيهات الله –عز وجل – لهم و رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [آل عمران:160].

فقد كان المسلمون في غزوة بدر الجانب الأقل ، عدة وعددا وتجهيزا من أعدائهم أهل الشرك والباطل، قال تعالى :﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [آل عمران:123]، ومع ذلك امتن الله – عز وجل – على عباده المؤمنين، بالنصر وقد كانوا أذلة لقلة عددهم وعتادهم ، بالمقارنة مع عدوهم، فأمدهم الله بالملائكة تقاتل معهم ، قال تعالى : ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران:125] .

ويقول تعالى :﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [آل عمران:126] ، يؤكد الله –عز وجل– بهذه الآية هذه الحقيقة ، بأن النصر يوم بدر إنما هو من عند الله، وليس لقتال الملائكة معهم، فالغاية من إنزال الملائكة بشارة لهم وتثبيتا لقلوبهم في تدافعهم مع عدوهم، قال الزمخشري: وما جعل الله إمداد المسلمين بالملائكة إلا بشارة لهم بأنهم ينصرون ولتطمئن به قلوبهم، فالنصر من عنده لا بتكاثرهم ومقاتلتهم ولا من عند الملائكة ، فهي مجرد أسباب يقوى به الله رجاء النصرة والطمع في الرحمة، ويربط به على قلوب المجاهدين [1] ، قال أبو السعود في الغاية من نزول الملائكة :" فإنهم بمعزل من التأثير ، وإنما قصارى أمرهم ما ذكر من البشارة وتقوية القلوب" [2] ، فالنصر إنما هو من عند الله –عز وجل–

---

[1] انظر: الزمخشري، محمود، الكشاف 412/1.

[2] أبو السعود، محمد، إرشاد العقل السليم 82/2.

يؤيد به من يشاء من أوليائه الذين صدقوا معه واتقوه، قال السعدي:" النصر الحقيقي الذي لا معارض له، فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده، فإنه إن شاء نصر من معه الأسباب كما هي سنته في خلقه، وإن شاء نصر المستضعفين الأذلين ليبين لعباده أن الأمر كله بيديه، ومرجع الأمور إليه"[1].

قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة249 :251] ، عندما خرج طالوت ملك بني إسرائيل في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل لملاقاة عدوهم، تراجع بعض جنوده عن استكمال سيرهم نحو العدو، وعندما استقلوا عددهم في مقابل كثرة عدوهم ، وقالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال ابن كثير : استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم ، فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق ، ونصره ليس عن كثرة عدد، وعندما تمت المواجهة بين حزب الإيمان –وهم قليل–من أصحاب طالوت ، وبين عدوهم أصحاب جالوت –وهم عدد كثير– ، دعوا الله أن ينزل عليهم صبرا من عنده ويثبت أقدامهم، في لقاء الأعداء وينصرهم على عدوهم ، فاستجاب لهم وغلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم .[2]

---

[1] السعدي، عبدالرحمن ، تيسير الكريم الرحمن 146/1.

[2] ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم 668/1.

وبعكس حال المسلمين يوم غزوة بدر من حيث القلة ، ففي غزوة حنين لم تغنْ عنهم كثرتهم، قال تعالى:﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التوبة26:25] ، قال الطبري : " يخبرهم تبارك وتعالى أن النصر بيده ومن عنده، وأنه ليس بكثرة العدد وشدة البطش، وأنه ينصر القليل على الكثير إذا شاء "[1]، وقال الرازي :" أن الله تعالى أعلمهم أنهم لا يغلبون بكثرتهم، وإنما يغلبون بنصر الله، فلما أعجبوا بكثرتهم صاروا منهزمين" [2] ، فمتى دخل العجب في نفوسهم ، حرموا التسديد والنصر الإلهي ، فالقتال والكثرة والعدة ما هي إلا أسباب، ولكن المسبب الحقيقي هو تأييد الله لهم ، المشروط بالعقيدة الراسخة والصبر على ملاقاة العدو.

يقول البوطي:" تعتبر غزوة حنين درسا في العقيدة الإسلامية وقانون الأسباب والمسببات من نوع ذلك الدرس الذي أوحت به غزوة بدر ، بل متمما له ، فإذا كانت موقعة بدر قد قررت للمسلمين أن القلة لا تضرهم شيئا في جنب كثرة أعدائهم إذا كانوا صابرين ومتقين ، فإن غزوة حنين قد قررت للمسلمين أن الكثرة أيضا لا تفيدهم إذا لم يكونوا صابرين ومتقين ، وكما نزلت آيات من كتاب الله تعالى في تقرير عبرة بدر ، فقد نزلت آيات منه أيضا في تقرير العبرة التي ينبغي أن تؤخذ من حنين "[3] .

---

[1] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان 179/14.

[2] الرازي، محمد، مفاتيح الغيب 19/16.

[3] انظر : البوطي، محمد سعيد رمضان(1414هـ/ 1994م)، فقه السيرة، دار الفكر ، بيروت–لبنان، ص 263.

يقول محمد رشيد رضا : الإسلام يأمر بإعداد القوى المادية و المعنوية، وأعظمها الإيمان بالله والاتكال عليه، فقد تمكن سلف المسلمين من فتح بلاد كسرى وقيصر وغيرهما ، بسبب ما أصاب تلك الشعوب من الشرك وفساد العقائد والآداب ، وانتشار الفواحش والمنكرات والخرافات، التي استبدلها الإسلام بالتوحيد والفضائل ، وبه نصرهم الله على الأمم كلها، إذ كان العرب دون تلك الشعوب في الاستعداد الحربي المادي، ولكن تميزوا بإصلاح الإسلام المعنوي، وعندما فرطوا فيه ثم قصروا في الاستعداد المادي للنصر في الحرب، وفقدوا النوعين عاد الغلب لغيرهم عليهم [1].

المطلب الرابع: مقابلة المكر بالمكر

دأب أهل الباطل على النيل من الحق بتدبير المكائد، إما بإثارة الشبهات ، أو المكر بأهل الحق للإضرار بهم ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن ذلك المكر والكيد للحق وأهله ، إنما هو سنة إلهية في كل عصر ومصر، قال تعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام:123] ، عرف المفسرون المكر بأنه استدراج المخدوع دون أن يشعر وبخفية، وتوريطه بالاحتيال عليه والغدر به لإلحاق الضرر ، قال الطبري:" إنه الخديعة والاحتيال للممكور به بالغدر، ليورطه الماكر به مكروها من الأمر" [2]، وقال ابن عطية :" المكر المخاتلة و التداهي، تقول: فلان يمكر بفلان إذا كان يستدرجه ويسوقه إلى هوة، وهو يظهر جميلا وتسترا بما يريد" [3] ، وقال الرازي:" أصل المكر في اللغة، السعي بالفساد في خفية ومداجاة " [4] .

---

[1] انظر: رضا، محمد رشيد، تفسير المنار 554/9.

[2] الطبري ، محمد بن جرير، جامع البيان 95/12.

[3] ابن عطية ، عبدالحق، المحرر الوجيز 518/2.

[4] الرازي، محمد، مفاتيح الغيب 235/8.

وفي قوله تعالى :﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:30] قال ابن عطية :" فمكر قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم كان تدبيرهم ما يسوؤه وسعيهم في فساد حاله وإطفاء نوره، وتدبير قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الخصال الثلاث لم يزل قديما من لدن ظهوره، لكن إعلانهم لا يسمى مكرا وما استسروا به هو المكر " [1] .

إلا أن وبال هذا المكر إنما هو عائد على الماكر، فالله تعالى بالمرصاد لكل متربص بالحق يكيد له ويسعى للإضرار بأوليائه، قال ابن عطية : رجوع وبال مكرهم عليهم دون أن يعلموا، وقد بالغ في صفة جهل الماكر ، فنفي عنه أن يعلم علم حس بوصفه أنه لا يشعر[2] ، قال تعالى: ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر:43] ،﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران:54] ،قال الزمخشري:" يمكرون ويخفون المكايد له ، ويمكر الله ويخفى الله ما أعد لهم ، حتى يأتيهم بغتة والله خير الماكرين، أي مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيرا"[3] .

كما توعد الله هؤلاء الماكرين بالحق وأهله ، وتضليل العباد بتلبيس الحق لبوس الباطل، بالذل والصغار في الدنيا إذ سينقلب ذلك عليهم ، وبالعذاب الأخروي جزاءً وفاقا، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر:10] ،﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ

---

[1] ابن عطية، عبدالحق ، المحرر الوجيز 518/2.

[2] انظر : المصدر السابق 341/2 .

[3] الزمخشري، محمود، الكشاف 216/2.

رُسُلُ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴾ [الأنعام:124] ، فسر الطبري قوله:(وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ) أي يصيبهم مع الصغار عذاب شديد، بما كانوا يكيدون للإسلام وأهله بالجدال بالباطل، والزخرف من القول، غرورا لأهل دين الله وطاعته [1] .

أما في نسبة المكر لله –عز وجل– ووصفه بالخيرية ، بالرغم من كونها صفة لا تليق بجلاله ابتداءً ، إنما هي باعتبار النهايات والنتائج ، فهو مكر بمقابل مكر أهل الباطل ، فقد ذكر الرازي أن وصفه تعالى بخير الماكرين ولا خير في مكرهم ، بأنه لا يخلو من أحد الوجوه : أن يكون المراد أقوى الماكرين فوضع خير موضع أقوى وأشد، لينبه بذلك على أن كل مكر فهو يبطل في مقابلة فعل الله تعالى، أو أن يكون المراد خير الماكرين لو قدر في مكرهم ما يكون خيرا وحسنا، أو أن يكون المراد ليس هو التفضيل، بل أنه في نفسه خير كما يقال: الثريد خير من الله تعالى [2] ، ويقول الرازي أيضا :" المكر عبارة عن الاحتيال في إيصال الشر، والاحتيال على الله تعالى محال ، فصار لفظ المكر في حقه من المتشابهات، وذكروا في تأويله وجوها؛ الأول: أنه تعالى سمى جزاء المكر بالمكر، كقوله:﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى:40]، وسمى جزاء المخادعة بالمخادعة، وجزاء الاستهزاء بالاستهزاء، والثاني: أن معاملة الله معهم كانت شبيهة بالمكر فسمي بذلك، الثالث: أن هذا اللفظ ليس من المتشابهات، لأنه عبارة عن التدبير المحكم الكامل ثم اختص في العرف بالتدبير في إيصال الشر إلى الغير، وذلك في حق الله تعالى غير ممتنع والله أعلم" [3] ، قال أبو السعود :"(وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ) أي لا يعبأ بمكرهم عند مكره ،

---

[1] انظر :الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان 12/ 97.

[2] انظر : الرازي، محمد، مفاتيح الغيب 478/15.

[3] المصدر السابق 236/8.

وإسناد أمثال هذا إليه سبحانه مما يحسن للمشاكلة ولا مساغ له ابتداء ، لما فيه من إيهام ما لا يليق به سبحانه" [1] .

وفي المقابل يسلي الله عز وجل أوليائه، ومن هم على طريق إحقاق الحق ورفع رايته ، بالصبر وعدم استعجال الأمر، فالعبرة بالخاتمة لكل من سلك هذا الطريق ، قال تعالى مبشرا رسوله ﷺ : ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ [النحل:127] ، قال ابن كثير : ولا تحزن على من خالفك؛ فإن الله قدر ذلك، ولا يصيبك غم مما يمكرون، ومما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك، ومظهرك ومظفرك بهم [2] ، وهذه البشارة إنما هي عامة لاتباع الحق ومن ساروا على هدي المصطفى ﷺ ، يمكر أهل الباطل بالحق وأهله في إقصائه وإضعافه ، فيقابل ذلك كما دلت عليه الآيات مكر الله بهم ، فيعلي أهل الحق ويظهرهم ويذل الباطل وأهله .

---

[1] أبو السعود، محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم 19/4 .

[2] انظر: ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم 615/4.

المبحث الثاني : قواعد تتعلق بالحق وأهله

المطلب الأول: قوة الحق لذاته وضعف الباطل لذاته

مهما تعاظم الباطل فهو إلى زوال لأنه ضعيف، وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة، ومثل لقوة وتماسك الحق في مقابل ضعف وهشاشة الباطل، فضرب الأمثال لتقريب هذه الحقيقة وتقريرها، والعمل على ترسيخها في نفوس أهل الحق ، فلا يداخلهم الشك، ولا يتسرب اليأس إلى نفوسهم، قال تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ [الرعد:17]، ضرب الله –عز وجل – في هذه الآية مثلاً لبيان حقيقة الحق والباطل ، مثل الحق في ثباته والباطل في سرعة اضمحلاله و زواله، فمثل الحق بالماء الذي أنزله الله من السماء إلى الأرض، فتسيل أودية الناس فيحيون وينتفعون به، فاحتمل السيل الذي حدث عن ذلك الماء ، زبدا عاليا فوق السيل لا ينتفع به ، فهذا أحد مثلي الحق والباطل، فالحق هو الماء الباقي الذي أنزله الله من السماء وتشربه الأرض وتنتفع به ، والزبد الذي ينفش ويذهب و يرمى ولا ينتفع به هو الباطل .

وذكرت الآية الكريمة مثلاً آخراً للحق والباطل، مثل فضة أو ذهب يوقد عليها الناس في النار طلب حلية يتخذونها أو متاع كالأواني والآلات، وذلك من النحاس والرصاص والحديد، يوقد عليه ليتخذ منه متاع ينتفع به يدخر ويكنز ويبقى أزمنة طويلة، ومما يوقدون عليه من هذه الأشياء يطفو فوقه زبد الفلز مثله إذا أذيب، مثل زبد السيل لا ينتفع به ويذهب باطلا كما لا ينتفع بزبد السيل ويذهب باطلا [1].

---

[1] انظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان 408/16 ؛ الزمخشري، محمود ،الكشاف 523/2 ؛ ابن عطية، عبدالحق، المحرر الوجيز 307/3

أهل الباطل وإن كثر عددهم واتحدوا وتآزروا فيما بينهم، فهم في الحقيقة جبناء بما ألقى الله – عز وجل –في قلوبهم من الرعب والرهبة ، فرقاء بأسهم بينهم شديد، وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة للمسلمين، والتي فيها من البشارة لهم تقوية لقلوبهم وترغيبا لهم للإقدام في دفعهم أهل الباطل ، قال تعالى :﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴾ [الحشر:14] ، قال الشوكاني :" اجتماعهم إنما هو في الظاهر مع تخالف قلوبهم في الباطن، وهذا التخالف هو البأس الذي بينهم الموصوف بالشدة " [1] ، قال الآلوسي : رهبتهم من المسلمين ليس لضعفهم وجبنهم في أنفسهم ، فبأسهم إذا اقتتلوا شديد ، وإنما ضعفهم وجبنهم من المسلمين بما قذف الله تعالى في قلوبهم من الرعب ، تحسبهم مجتمعين ذوي ألفة واتحاد وقلوبهم متفرقة لا ألفة بينها ، بل عداوات فلا يتعاضدون حق التعاضد ولا يرمون عن قوس واحدة، وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم[2] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴾ [هود:118]، أورد الطبري في تفسير الآية اختلاف أقوال المفسرين في المراد بماهية "الاختلاف " ، ومن ضمن هذه الأقوال قول قتادة:" أهل رحمة الله أهل جماعة، وإن تفرقت دورهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة، وإن اجتمعت دورهم وأبدانهم"[3] .

يبين المولى –عز وجل– ثبات الحق في مواجهة الباطل ودحضه ، في قوله تعالى : ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:18] ، فالباطل هش ضعيف زهوق سهل التلاشي عند التصادم معه ، لأن الله قد تكفل بإحقاق الحق وإزهاقه وتولى

---

[1] الشوكاني، محمد، فتح القدير 243/5.

[2] الآلوسي ، محمود بن عبدالله ، روح المعاني، 251/14.

[3] انظر :الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان 533/15.

تعريته وقمعه، و"استعار لذلك القذف والدمغ، تصويرا لإبطاله وإهداره ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا، قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه"[1] ، قال أبو السعود: يمحقه بالكلية، وقد استعير لإيراد الحق على الباطل القذف ، الذي هو الرمي الشديد بالجرم الصلب كالصخرة ، ولمحقه للباطل الدمغ الذي هو كسر الشيء الرخو الأجوف، وهو الدماغ فيشق غشاءه المؤدي إلى زهوق الروح تصويرا له بذلك ، فإذا هو زاهق ذاهب بالكلية، وفي إذا الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان مالا يخفى، فكأنه زاهق من الأصل [2] ، قال ابن عاشور: القذف رمي جسم على جسم ، واستعير لايراد مايزيل ويبطل الشيء، والدمغ: كسر الجسم الصلب الأجوف، وهو هنا ترشيح لاستعارة القذف لإيراد ما يبطل، وهو استعارة أيضا، فقد استعير الدمغ لمحق الباطل وإزالته كما يزيل القذف الجسم المقذوف، فالاستعارتان من استعارة المحسوسين للمعقولين [3] .

وهذا عام في كل مظهر من مظاهر دفع الباطل ، سواء برد الشبهات أو بالقتال ، قال السعدي : " لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية، في إحقاق باطل أو رد حق، إلا وفي أدلة الله ، من القواطع العقلية والنقلية، ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه، فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد"[4]، قال ابن عاشور : " فالله يبطل الباطل بالحق بأن يبين للناس بطلان الباطل على لسان رسله، وبأن أوجد في عقولهم إدراكا للتمييز بين الصلاح والفساد، وبأن يسلط بعض عباده على المبطلين لاستئصال المبطلين " [5] .

---

[1] الزمخشري، محمود، الكشاف 107/3.

[2] انظر: أبو السعود ،محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم 60/6.

[3] انظر :ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير 34/17.

[4] السعدي، عبدالرحمن، تيسير الكريم الرحمن 520/1.

[5] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير 34/17.

يؤكد الله –عز وجل– ضعف الباطل بوصفه بالزهوق ، وهي من صيغ المبالغة وإن ظهر وانتفش فهو سريع الزوال، قال تعالى :﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:81]، قال ابن عاشور : " يشمل كل باطل في كل زمان، وإذا كان هذا شأن الباطل كان الثبات والانتصار شأن الحق لأنه ضد الباطل، فإذا انتفى الباطل ثبت الحق " [1] ، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سبأ48:49] ، قال الرازي:" فيه معنى لطيف، وهو أن قوله تعالى: (قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ) لما كان فيه معنى قوله تعالى: (بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ) كان يقع لمتوهم أن الباطل كان فورد عليه الحق فأبطله ودمغه، فقال هاهنا ليس للباطل تحقق أولا وآخرا، وإنما المراد من قوله فيدمغه أي فيظهر بطلانه الذي لم يزل كذلك، وإليه الإشارة بقوله تعالى في موضع آخر: (وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا) ، يعني ليس أمرا متجددا زهوق الباطل، فقوله: (وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ) أي لا يثبت في الأول شيئا خلاف الحق وما يعيد ، أي لا يعيد في الآخرة شيئا خلاف الحق"[2]، أي فالباطل لم يكن في يوم من الأيام ذا قوة من الأصل، بل هي فترات يرتفع فيها وينتفش ويتعاظم وهو خواء ، أو يسقط ويتضح للجميع عواره.

قال سيد قطب : تؤكد الآية ثبات الحق وقوته ، وزهوق الباطل واندحاره ، وعبر بذلك بصيغة التوكيد، وإن بدا أن للباطل صولة ودولة، فالباطل ينتفخ ليبدو عظيما ، ولكنه هش سريع العطب، لأنه لا يحمل عناصر البقاء في ذاته، إنما يستمد حياته الموقوتة من عوامل خارجية، فإذا تخلخلت تلك العوامل تهاوى وانهار، فأما الحق فمن ذاته يستمد عناصر وجوده، وقد تقف ضده

---

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير 188/15.

[2] الرازي، محمد، مفاتيح الغيب 217/25.

الأهواء، وتقف ضده الظروف، ولكن ثباته واطمئنانه يجعل له العقبى، ويكفل له البقاء، لأنه من عند الله [1] .

وضعف أهل الباطل مستمد من هشاشة الباطل نفسه ومن ضعف الشيطان ، والذين هم أولياؤه واتباع كيده ، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:76]، قال الزمخشري: " رغب الله المؤمنين ترغيبا وشجعهم تشجيعا، بإخبارهم أنهم إنما يقاتلون في سبيل الله، فهو وليهم وناصرهم، وأعداؤهم يقاتلون في سبيل الشيطان، فلا ولي لهم إلا الشيطان، وكيد الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه"[2] .

المطلب الثاني: العاقبة للحق والغلبة لأهله

بشر القرآن الكريم أهل الحق والمدافعين عنه، بقرب نصر الله وإن تأخر فالعاقبة لهم ، فلا يستبطأ أهل الحق نصر الله وتمكينه وتغلبهم على الباطل وأهله ، قال تعالى :﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج41:40] ، قال أبو السعود :" فيه تأكيد للوعد بإظهار أوليائه وإعلاء كلمته "[3] ، وقال الشعراوي : المعركة بين الحق والباطل لا تطول؛ لأن الباطل زهوق، والذي يطول من المعارك هي المعارك بين الباطل والباطل؛ فليس أحدهما أولى بأن ينصره الله ، فهذا على فساد، وذاك على فساد، وسبحانه يدكهما ببعضهما لينتهي جناحا الفساد في

---

[1] انظر :قطب، سيد، في ظلال القرآن 2247/4.

[2] الزمخشري، محمود، الكشاف 535/1.

[3] أبو السعود، محمد، إرشاد العقل السليم 109/6.

الكون؛ لأنه ليس هناك جانب أحق بالله من الآخر؛ لذلك يتركهم يصطرع بعضهم مع بعض، ومادام الحق قد تركهم لبعضهم فلا بد أن تطول المعركة [1] .

ويبشر الله –عز وجل – أتباع الحق من أوليائه بأن الغلبة لهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة:56] ، قال الطبري : " من وثق بالله وتولى الله ورسوله والمؤمنين، ومن كان على مثل حاله من أولياء الله من المؤمنين، لهم الغلبة والدوائر والدولة على من عاداهم وحادهم، لأنهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، دون حزب الشيطان" [2]، ويبشرهم بالظفر وإن طالت المعركة وخسروا جولة من جولات هذا الصراع ، وإنما تأخر لحكمة استأثر الله عز وجل بها ، قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر:51] ، قال الزمخشري:" يعنى أنه يغلبهم في الدارين جميعا بالحجة والظفر على مخالفيهم، وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحانا من الله فالعاقبة لهم، ويتيح الله من يقتص من أعدائهم ولو بعد حين" [3] ، قال ابن كثير : هذه سنة الله في خلقه أن ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن آذاهم [4].

كما بشر الرسول ﷺ أولياء الله أتباع الحق بالنصر والظهور والتأييد من الله تبارك وتعالى، عن أبي هريرة– رضي الله عنه– عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره

---

[1] انظر: الشعراوي، محمد، تفسير الشعراوي الخواطر 1062/2.

[2] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان 427/10.

[3] الزمخشري، محمود، الكشاف 172/4.

[4] ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم150/7.

الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته"[1]، وقوله ﷺ : " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله" [2].

بل إن هذه البشارة التي وعدها الله – عز وجل – أولياءه من أهل الحق، قد مضى فيها القضاء في أم الكتاب ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات: 171: 173] ، قال الطبري: يبشرهم تعالى بأنه قد سبق القول لرسله وأتباعه إنهم لهم المنصورون، ومضى بهذا القضاء والحكم في أم الكتاب، وهو أن لهم النصرة والغلبة [3]، أما المقصود بالكلمة ولم سميت بذلك مع أنها عدة كلمات ، يقول الزمخشري: والكلمة هي قوله: (إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾) ، وإنما سماها كلمة وهي كلمات عدة، لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة ، والمراد منها الوعد بعلوهم على عدوهم ، في مقاوم الحجاج وملاحم القتال في الدنيا، وعلوهم عليهم في الآخرة، ولا يناقض ذلك انهزامهم في بعض المشاهد، وما جرى عليهم من القتل ، فإن الغلبة كانت لهم ولمن بعدهم في العاقبة [4] .

أما في كيفية نصر الله لأوليائه ودفعه عنهم وتأييده لهم فالوسائل متعددة، ولها صور مختلفة[5]، " فقد تكون بقوة الحجة، وقد تكون بالدولة والاستيلاء، وقد تكون بالدوام والثبات، فالمؤمن

---

[1] البخاري، محمد بن إسماعيل ، الجامع الصحيح، كتاب الرقاق ، باب التواضع ، حديث رقم (6502).

[2] مسلم، مسلم بن الحجاج، كتاب الإمارة ، حديث رقم(1920).

[3] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان 130/21

[4] انظر : الزمخشري، محمود، الكشاف 67/4.

[5] سيأتي التفصيل فيها في الفصل الثالث من هذا البحث.

وإن صار مغلوبا في بعض الأوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب" [1]، قال تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة:21] ، وقد تكون النصرة والغلبة بواسطة " الانتقام لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبي وغير ذلك من العقوبات، ولا يقدح في ذلك ما قد يتفق لهم من صورة الغلبة امتحانا ، إذ العبرة إنما هي بالعواقب وغالب الأمر" [2]، فقد تكون النصرة بصورة يجهلها أو يغفل عن حقيقتها وحكمتها أهل الحق ، ولكن العبرة في النهايات وعواقب الأمور.

وتأخير النصر إنما هي لحكم عديدة منها؛ ماذكره ابن القيم من أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانا وركونا إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والدار الآخرة، فإذا أراد بها ربها كرامته قيض لها من الابتلاء والامتحان ، ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه[3]، قال سيد قطب : قد يبطىء النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج، ولم تحشد بعد طاقاتها لتبذلها في سبيل الله ، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته سريعا لعدم قدرتها على حمايته طويلا، ولتدرك أن القوة وحدها بلا سند من الله لا تكفل النصر، فتوثق صلتها بالله، فلا تنحرف عن الحق الذي نصرها به الله ، وليكون جهادها في سبيله وحده ، ومن الأسباب أيضا أن في الباطل الذي تكافحه بقية من خير، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصا، أو أن هذا الباطل لم ينكشف زيفه للناس تماما ، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارا من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله، فتظل جذوره في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة، فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عاريا للناس، أو لأن

---

[1] الرازي ، محمد، مفاتيح الغيب 363/26.

[2] أبو السعود، محمد، إرشاد العقل السليم 280/7.

[3] انظر: ابن القيم، محمد، زاد المعاد في هدي خير العباد 199/3.

البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق ، فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة ، فيظل الصراع قائما حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستبقائه [1].

المطلب الثالث: الثبات عند النّزال واليقين بالنصر

يوصي القرآن الكريم في أكثر من موضع أهل الحق ، بالثبات واليقين بنصر الله ، طالما أن هدفهم هو إعلاء كلمة الحق وراية الدين، فلا ينبغي أن يداخلهم الشك والريبة، أو يتزعزع يقينهم وإن تأخر النصر، فالعاقبة لهم ؛ لأن الناصر لدين الله منصور بإذنه تعالى، يسدده ويثبت قدمه، وطالما أنهم قد استوفوا شروط النصر بنصرهم لدين الله ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد:7] ، قال الطبري: إن نصرتم الله لتكون كلمته العليا ، ونصرتم رسوله وجاهدتم معه، ينصركم على أعدائكم ويظفركم بهم ، ويثبت أقدامكم ويقوكم عليهم، ويجرئكم حتى لا تولوا عنهم، وإن كثر عددهم وقل عددكم، فإنه ناصر دينه وأولياءه [2]، قال ابن عطية :" تنصروه بجدكم واتباعكم وإيمانكم ، يَنْصُرْكُمْ بخلق القوة لكم والجرأة وغير ذلك من المعاون" [3].

ويؤكد الله هزيمة عدوهم مهما بلغت قوتهم وتدبيرهم وتعاضدهم أمام الحق وأهله، قال تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ٤٤ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥ ﴾ [القمر:44- 45] قال ابن كثير:" يعتقدون أنهم مناصرون بعضهم بعضا، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء، سيتفرق شملهم ويغلبون"[4]، لذلك يوصيهم الله بالثبات عند ملاقاة أهل الباطل، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾ [الأنفال:15] ، قال الطبري: يأمر تعالى عباده

---

[1] انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن 2426/4.

[2] انظر : الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان 160/22.

[3] ابن عطية، عبدالحق، المحرر الوجيز 112/5.

[4] ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم 481/7.

إذا لقوا أعداءهم في القتال، ألا يولوا أعداءهم ظهورهم فينهزموا عنهم، ولكن يوصيهم بالثبات فإن الله معهم على أعداءهم[1].

وقد أورد الطبري عند تفسيره للآية سؤالا في حكم قول الله عز وجل: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال:16] ، هل هو خاص في أهل بدر، أم هو في المؤمنين جميعا؟ وبعد أن استعرض الأقوال رجح قول من قال: حكمها محكم، وأنها نزلت في أهل بدر، وحكمها ثابت في جميع المؤمنين، وأن الله حرم على المؤمنين إذا لقوا العدو، أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتحرف القتال، أو لتحيز إلى فئة من المؤمنين حيث كانت من أرض الإسلام، وأن من ولاهم الدبر بعد الزحف ، لقتال منهزما بغير نية إحدى الخلتين اللتين أباح الله التولية بهما، فقد استوجب من الله وعيده، إلا أن يتفضل عليه بعفوه[2].

ويأمرهم الله عند ملاقاة العدو، بالإضافة إلى الثبات في القتال ، ذكر الله والتضرع إليه بأن ينزل عليهم الثبات والنصر، قال تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال:45] ، قال القرطبي: "أمر بالثبات عند قتال الكفار، كما في الآية قبلها [3] النهي عن الفرار عنهم ، فالتقى الأمر والنهي على سواء، وهذا تأكيد للوقوف للعدو والتجلد له"[4] ،(دلهم على الطريق الذي يأخذونه لتحقيق النصر المنشود، ليكون لهم الغلب، فالثبات للعدوّ والتصميم على لقائه في عزم وإصرار، دون أن يقع في النفس هاجس للفرار أو التراجع، هو

---

[1] انظر : الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان 435/13.

[2] انظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان 436/13: 440.

[3] يقصد قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال:15]

[4] القرطبي ، محمد ، الجامع لأحكام القرآن 23/8.

السلاح العامل بما لا تعمله كثرة العدد والعتاد، لكسب المعركة وتحقيق النصر، والإكثار من ذكر الله في هذا الموطن، للصبر على الشدائد، والثبات في وجه الموت) [1] .

يتفضل الله عز وجل على أوليائه بمعيته ، فهو معهم يثبتهم ويسددهم ، ويلقي الرعب في قلوب أعدائهم لشركهم وضلالهم ، قال تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال:12]، قال ابن القيم: " أخبرهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم الرعب الذي يمنعهم من الهجوم عليهم والإقدام على حربهم، وأنه يؤيد حزبه بجند من الرعب ينتصرون به على أعدائهم، وذلك الرعب بسبب ما في قلوبهم من الشرك بالله، وعلى قدر الشرك يكون الرعب، فالمشرك بالله أشد شيء خوفا ورعبا، والذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بالشرك لهم الأمن والهدى والفلاح " [2].

فأهل الحق إنما يستمدون قوتهم وثباتهم في مواجهة الباطل، من معية الله ووعده لهم بالنصر وتثبيت أقدامهم ، وأما ما يصيبهم من خوف واضطراب لحظة المواجهة وفي الميدان فهو أمر فطري ، " إن قلب المؤمن ينبغي أن يظل ثابتا قويا، لا تهزه في الأرض أية قوة مادية ، لأنه مسير بأمر الله وموعود بنصره ومكلف بالثبات والصبر ، وإذا جاز أن تنتاب القلوب هزة أو يحصل لها خوف ، فإنه أمر عادي وشيء فطر عليه الناس، والمحذور هو أن يصل هذا الخوف إلى درجة الانهزام النفسي الذي يبلغ بصاحبه حد الفرار وترك القتال "[3] .

لهذا ، فإن عرَضَ للمسلم شكّ أو سوء ظن بنصر الله – عز وجل – ، فليراجع نفسه ، ولا يتهم الله تعالى بإخلاف الوعد ، فذلك حال المنافقين الذين توعدهم الله بقوله :﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

---

[1] انظر: الخطيب، عبدالكريم، التفسير القرآني للقرآن 626/5.

[2] ابن القيم ، محمد، زاد المعاد في هدي خير العباد 202/3.

[3] الجعوان، محمد بن ناصر بن عبدالرحمن(1401هـ-1981م)، القتال في الإسلام أحكامه وتشريعاته دراسة مقارنة ، الطبعة الأولى، ص 74.

وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح:6]، قال ابن القيم : كان هذا ظن السوء الذي لا يليق بأسمائه وصفاته وذاته المبرأة من كل عيب وسوء ، ولا يليق بوعده الصادق لرسله وأوليائه بالنصر والغلبة الذي لا يخلفه ، فإن عزته وحكمته تأبى أن يذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به[1] .

المطلب الرابع: بث التفاؤل ونبذ روح الانهزامية

جاء في القرآن الكريم توجيهات ربانية لنبذ روح الانهزامية والقنوط من وعد الله –عز وجل – بنصره أوليائه ، فمن ذلك ما جاء في أعقاب غزوة أحد ، من التوجيهات والحقائق و الدروس العملية لهم ، قال تعالى :﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ [آل عمران193:140] ، ففي الآية تسلية وبشارة للرسول ﷺ وللمسلمين بأن لا ييأسوا ولا يضعفوا ، ولا يحزنوا عما أصابهم يوم أحد، ويصمدوا في طلب العدو، ذلك لأنهم هم الأعلون بتأييد الله لهم، قال الزمخشري: "ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم، ولا يورثنكم ذلك وهنا وجبنا ولا تبالوا به، ولا تحزنوا على من قتل منكم وجرح وأنتم الأعلون، وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب، لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد، أو وأنتم الأعلون شأنا، لأن قتالكم لله ولإعلاء كلمته، وقتالهم للشيطان لإعلاء كلمة الكفر، ولأن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار، أو هي بشارة لهم بالعلو والغلبة " [2].

---

[1] انظر : ابن القيم، محمد، زاد المعاد في هدي خير العباد 205/3.

[2] الزمخشري، محمود، الكشاف 418/1.

يحفز الله –عز وجل– المؤمنين وينبههم ، إلى أن ما جرى عليهم من هزيمة يوم أحد ، فقد جرى على عدوهم يوم بدر، وبالرغم من ذلك لم يتقاعسوا عن القتال ، قال الزمخشري: " لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال، فأنتم أولى أن لا تضعفوا " [1]، قال الرازي :" بين تعالى أن الذي يصيبهم من القرح لا يجب أن يزيل جدهم واجتهادهم في جهاد العدو، وذلك لأنه كما أصابهم ذلك فقد أصاب عدوهم مثله قبل ذلك، فإذا كانوا مع باطلهم وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب، فبأن لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسك بالحق أولى " [2] .

كما يلفت انتباههم إلى حركة التاريخ ، ليوطئوا أنفسهم على وقع الهزيمة ، فإن انتصر أهل الباطل في جولة ، فإنما هو نصر مؤقت وغلبة زائلة ، قال الرازي: من يبحث في أحوال القرون الماضية وجد أهل الباطل وإن اتفقت لهم الصولة، لكن كان مآل الأمر إلى الضعف والفتور، وصارت دولة أهل الحق عالية، وصولة أهل الباطل مندرسة، فلا ينبغي أن تكون هزيمتكم يوم أحد سببا لضعف قلبكم وعجزكم، بل يجب أن يقوى قلبكم، فإن الاستعلاء سيحصل لكم والقوة والدولة راجعة إليكم[3].

ويبين الرازي أن الغاية من مداولة النصر بين فريقي الحق والباطل لعدة وجوه ، الأول: أنه تعالى لو شدد المحنة على الكفار في جميع الأوقات ، وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات، لحصل العلم الاضطراري بأن الإيمان حق وما سواه باطل، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب، والثاني: لتشديد المحنة على المؤمن العاصي في الدنيا أدبا له، و تشديد المحنة على الكافر لغضب من الله عليه، والثالث: وهو أن لذات الدنيا وآلامها غير باقية وأحوالها غير مستمرة، وإنما تحصل السعادات المستمرة في دار الآخرة، ولذلك فإنه تعالى يميت بعد الإحياء، ويسقم بعد

---

[1] المصدر السابق 418/1.

[2] انظر: الرازي، محمد، مفاتيح الغيب 371/9.

[3] المصدر السابق 371/9.

الصحة، فإذا حسن ذلك فلم لا يحسن أن يبدل السراء بالضراء والقدرة بالعجز[1] .

وتعليق النهي عن الحزن والوهن بمدى قوة الإيمان ،لأن المؤمن الذي تمكن الإيمان من قلبه، يؤمن بقضاء الله وقدره، أنه ما قدر الهزيمة إلا لحكمة استأثر بعلمها عنده سبحانه ، فلا يجزع من تصريف الله للأمور، وإن كانت تخالف هواه وإرادته، قال الزمخشري: " صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بصنع الله وقلة المبالاة بأعدائه "[2]، كما قرن نهييه تعالى للمسلمين عن الحزن وعلل ذلك بأنهم الأعلون ، بجميع أحوالهم سواء انتصروا أم لم يكتب لهم النصر، ذكر الرازي ثلاثة وجوه في قوله (وأنتم الأعلون): الأول – حالكم أعلى من حالهم في القتل، لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد، أو لأن قتالكم لله وقتالهم للشيطان، أو لأن قتالهم للدين الباطل وقتالكم للدين الحق، وكل ذلك يوجب كونكم أعلى حالا منهم، والثاني– وأنتم الأعلون بالحجة والتمسك بالدين والعاقبة الحميدة ، الثالث– وأنتم الأعلون من حيث أنكم في العاقبة تظفرون بهم وتستولون عليهم، وهذا شديد المناسبة لما قبله، لأن القوم انكسرت قلوبهم بسبب ذلك الوهن، فهم كانوا محتاجين إلى ما يفيدهم قوة في القلب، وفرحا في النفس، فبشرهم الله تعالى بذلك[3].

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:104] ، ينهى الله عز وجل أهل الحق عن الانكسار والتراجع في دفع الباطل وأهله، والسبب أن الخسائر متوقعة وطبيعية لكلا الطرفين، ولكن فضلوا بالأجور والفوز برضا الله ومعيته، قال أبو السعود: " تعليل للنهي وتشجيع لهم ، أي ليس ما تقاسونه من الآلام مختصا بكم، بل هو مشترك بينكم وبينهم، ثم إنهم يصبرون على ذلك فما لكم لا

---

[1] انظر: المصدر السابق 372/9.

[2] الزمخشري، محمود، الكشاف 418/1.

[3] انظر : الرازي، محمد، مفاتيح الغيب 371/9.

تصبرون، مع أنكم أولى به منهم ، حيث ترجون من الله من إظهار دينكم على سائر الأديان ، ومن الثواب في الآخرة مالا يخطر ببالهم" [1] ، فالدافع الذي يبقي جذوة الصبر على العدو متقدة في نفوس أهل الحق هو الإيمان الراسخ في النفس، والتطلع إلى إنجاز الله الناصر لوعده وتفضله على أوليائه بالنصر والغلبة ، قال محمد رشيد رضا : الإيمان الخالص والوعد الإلهي هما مدعاة الأمل والرجاء، اللذان يبعثان القوة ومضاعفة العزيمة ، واليأس يميت الهمة ويضعف العزيمة، فيغلب على صاحبه الجزع والفتور، فإذا استوى أهل الحق مع أهل الباطل في آلام الأبدان، فقد فضلوا بقوة الوجدان، والثقة بحسن العاقبة، فلا يهنوا بالمدافعة، وقد مضت سنة الله بأن يكون النصر للمؤمنين على الكافرين[2].

وقد ذكر لنا القرآن الكريم دروسا من ثبات أنبياء الله ورسله، وصبرهم في تدافعهم مع أهل الباطل، وتحمل الهزيمة ومعاودة الكرة لتتحصل لهم العاقبة، دون أن تهتز ثقتهم بنصر الله، بل كانوا مقبلين بيقين غير مدبرين ، قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:146].

المطلب الخامس: محاسبة النفس والاعتبار من مصير الأمم السابقة

تقررت في القرآن الكريم حقيقة أن ما يصيب المسلم من مصيبة ، سواء نقص بالأموال أو الأولاد أو الهزيمة وتغلب العدو وغيرها من ابتلاءات ، إنما هو مرده لتقصيره واقترافه لذنوب منعت عنه الخير والمعافاة ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:30] ، قال الطبري : " وما يصيبكم أيها الناس من مصيبة في الدنيا في أنفسكم

---

[1] أبو السعود، محمد، إرشاد العقل السليم 228/2.

[2] انظر : رضا، محمد رشيد، تفسير المنار 317/5.

وأهليكم وأموالكم ، فإنما يصيبكم ذلك عقوبة من الله لكم ، بما اجترمتم من الآثام فيما بينكم وبين ربكم، ويعفو لكم ربكم عن كثير من إجرامكم، فلا يعاقبكم بها" [1] ، وعن ابن عباس قال: يعجل للمؤمنين عقوبتهم بذنوبهم ولا يؤاخذون بها في الآخرة[2] ، قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الروم42:41] ، قال ابن القيم: الذنوب سبب الفساد الذي ظهر، والمراد بالفساد: النقص والشر والآلام ، التي يحدثها الله في الأرض بمعاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنبا أحدث الله لهم عقوبة. [3]

كما لفت القرآن الكريم أنظار المسلمين لحركة التاريخ وأخبار الأمم السابقة ، وحثهم على أخذ العبرة والعظة من مصارع الأمم السابقة بسبب ذنوبهم وشركهم ، واستخلاص الدروس التي تعينهم في مواجهة الباطل وأهله، قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران:137] ، ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام:11] ، قال الطبري: يأمرهم الله – عز وجل– بأن يجولوا في بلاد المكذبين الجاحدين، ثم ينظروا كيف أعقبهم الله تكذيبهم ذلك، من الهلاك وخزي الدنيا كخراب الديار من سخط الله، ليعتبروا ويتعظوا ويحذروا مثل مصارعهم، ويتقوا أن يحل بهم مثل الذي حل بالمكذبين[4].

---

[1] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان 538/21.

[2] المصدر السابق 539/21.

[3] ابن القيم ، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت751هـ) ، تفسير القرآن الكريم (ابن القيم)، ، (المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان)، دار ومكتبة الهلال – بيروت، الطبعة الأولى ، 1410 هـ ، 432/1.

[4] الطبري، محمد بن جرير ، جامع البيان 272/11.

وفي لفتة بيانية ذكر الزمخشري الفرق بين قوله تعالى (فانظروا) ، والتي فيها وجوب الأمر بالسير للنظر في مهالك الأمم السابقة وديارهم لأخذ العبرة والعظة ، وبين قوله (ثم انظروا) والتي تفيد (ثم) فيها للترتيب والتراخي ، لتدل على أن التوجيه بالنظر في أحوال الهالكين ، إنما هو مترتب على السير في الأرض لقضاء الحوائج ، دون وجوبه على وجه الخصوص ، فقال : " جعل النظر مسببا عن السير في قوله فانظروا فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين، وأما قوله سيروا في الأرض ثم انظروا فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبه على ذلك بثم، لتباعد ما بين الواجب والمباح" [1] .

إن النفس الأمارة بالسوء أولى بالجهاد لتقويمها وتهذيبها ، وإلا كانت سببا في إيراد صاحبها لموارد الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة ، قال ابن قدامة المقدسي :" واعلم أن أعدى عدوٍ لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر، وقد أمرت بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها، وأن تقودها بسلاسل الدهر إلى عبادة ربها، فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لزمها بالتوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة، فلا تغفلن عن تذكيرها" [2] ، لذا من شروط تغلب أهل الحق على الباطل وأهله ، هو تنقيتهم من أدران الذنوب والمعاصي ، ليستحقوا وعد الله بالنصر ، ويفوزوا بمعية الناصر سبحانه وتعالى .

جاءت حادثة مخالفة الرماة لأوامر رسول الله ﷺ في غزوة أحد ، لتجسد هذه الحقيقة في زمن الرسول ﷺ ، حقيقة أن الهزيمة والابتلاءات كافة إنما هي بما كسبت أيدي البشر، والتي عالجها القرآن الكريم، وأصبحت درسا لكل مقاتل في سبيل الله ، قال ابن القيم :" لو استمروا على الطاعة ولزوم أمر الرسول لاستمرت نصرتهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة وفارقوا مركزهم ،

---

[1] الزمخشري، محمود، الكشاف 8/2.

[2] ابن قدامة، أحمد بن عبدالرحمن ابن قدامة المقدسي، (ت689هـ)، مختصر منهاج القاصدين ، مكتبة دار البيان ، دمشق، 1398هـ/ 1978م ، ص377 .

فانخلعوا عن عصمة الطاعة ففارقتهم النصرة "[1] ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [آل عمران:165].

وعند مواجهة العدو يتوجب على أهل الحق التضرع لله –عز وجل– في مواجهتهم لأهل الباطل، كما حصل لطالوت وجنوده عند مواجهة العدو ، حين انطرحوا متذللين لله متضرعين له ، فنصرهم الله على عدوهم وثبت أقدامهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:250] ، ﴿ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:147] ، قال ابن القيم : استنصر الأنبياء وأممهم على قومهم باعترافهم بذنوبهم واستغفارهم ، وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم ، وأن ينصرهم على أعدائهم لما علموا إنما يدال عليهم بذنوبهم ، والذنوب نوعان: تقصير في حق، أو تجاوز لحد، وأن النصرة منوطة بالطاعة، فوفوا المقامين حقهما: مقام المقتضي، وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه، ومقام إزالة المانع من النصرة، وهو الذنوب والإسراف [2].

---

[1] ابن القيم ، محمد، زاد المعاد في هدي خير العباد 203/3.

[2] انظر: ابن القيم ، محمد، زاد المعاد في هدي خير العباد 202/3.

المبحث الثالث : قواعد تتعلق بالباطل وأهله

المطلب الأول: رعاية أكابر القوم للباطل

من قواعد الصراع بين الحق والباطل التي أكدها القرآن الكريم، تصدر الوجهاء كبار القوم لرعاية وتوجيه وتغذية الباطل للتلبيس على الناس ، في سبيل الحفاظ على هذه الصدارة ، قال تعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام:123]، قال الطبري : جعلنا في كل قرية عظماءها مجرميها ليمكروا فيها، بغرور من القول أو بباطل من الفعل[1]، وذكر الرازي أن في الآية تقديم وتأخير تقديره : جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر[2].

أما سر تخصيص كبار القوم برعاية الباطل، فمرده لحرصهم على الحفاظ على مكتسباتهم في ظل بيئة يغذيها الباطل ، لأنهم هم الحاملون على الضلال والماكرون بالناس[3]، والأقرب إلى الكفر بما أعطوا من الرياسة والسعة [4] ، والأقوى على استتباع الناس والمكر بهم[5]، لأن ما فيهم من الرياسة والسعة أدعى لهم إلى المكر والكفر من غيرهم، لقوله تعالى:﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى:27][6]، فهم الأقدر على الفساد والتحيل والمكر لرئاستهم وسعة أرزاقهم واستتباعهم الضعفاء و المحاويج [7] .

---

[1] انظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان 93/12.

[2] انظر: الرازي، محمد، مفاتيح الغيب 135/13.

[3] الزمخشري ، محمود، الكشاف 63/2.

[4] الجوزي، عبدالرحمن، زاد المسير 74/2.

[5] البيضاوي، عبدالله، أنوار التنزيل وأسرار التأويل 181/2.

[6] النسفي، عبدالله، مدارك التنزيل وحقائق التأويل 534/1.

[7] ابن حيان، محمد، البحر المحيط 636/4.

قال الزجاج:" إنما جعل المجرمين أكابر ، لأن رئاستهم أقدر على الغدر والمكر ، وترويج الأباطيل على الناس من غيرهم ، ولأن كثرة المال وقوة الجاه تحمل الإنسان على المبالغة في حفظهما، وذلك الحفظ لا يتم إلا بجميع الأخلاق الذميمة من الغدر والمكر والكذب والغيبة والنميمة والأيمان الكاذبة ، ولو لم يكن للمال والجاه عيب سوى أن الله تعالى حكم بأنه إنما وصف بهذه الصفات الذميمة من كان له مال وجاه، لكفى ذلك دليلا على خساسة المال والجاه "[1] .

وحقيقة مكرهم إنما هي تلبيس الباطل لبوس الحق و" دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال" [2] ، والتحايل بقلب الحقائق عن طريق صرف الغير عن مراده " بضرب من الحيلة في الفعل أو الخلابة [3]في القول، والأكثر فيه أن يكون الصرف عن الحق إلى الباطل، وعن الخير إلى الشر ؛ لأن الحق والخير قلما يحتاج إلى إخفائهما بالحيلة والخلابة " [4]، وقد وصفهم الله عز وجل بالإجرام لما في فعلهم من الإفساد والإضرار بأولياء الله ، حيث بلغ ظلمهم مداه بما مكنهم الله من سيادة وزعامة وسلطة .

ومكر وإجرام هذه الفئة إنما هو سنة إلهية في الاجتماع البشري، تتكرر في كل عصر ومصر، قال محمد رشيد رضا : إن سنة الله تعالى في الاجتماع البشري قد مضت بأن يكون في كل أمة ، زعماء مجرمون يمكرون فيها بالرسل ، وبسائر المصلحين من بعدهم، ليحفظوا رياستهم ويعززوا كبرياءهم ويثمروا مطامعهم فيها، وبغيرهم من الأمم لإرضاء مطامع أمتهم وتعزيز نفوذهم[5] .

---

[1] جاء قول الزجاج في تفسير :الرازي، محمد، مفاتيح الغيب 135/13.

[2] ابن كثير ، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم 331/3.

[3] الخلابة: أن تخلب المرأة قلب الرجل بألطف القول وأخلبه ، وامرأة خلابة أي: مذهبة للفؤاد، وكذلك خلوب، ورجل خلبوت أي ذو خديعة، الفراهيدي، الخليل بن احمد ، العين 270/4.

[4] رضا، محمد رشيد ، تفسير المنار 29/8.

[5] انظر :رضا ، محمد رشيد، تفسير المنار 29/8.

قال سيد قطب : إنها سنة جارية أن ينتدب في كل قرية ، نفر من أكابر المجرمين ليمكروا فيها، يقفون موقف العداء من دين الله ، لأنه يجرد الأكابر من السلطان الذي يستطيلون به على الناس ، فيوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، في المعركة مع الحق والهدى، وفي نشر الباطل والضلال، ويطمئن الله أوليائه إن كيد أكابر المجرمين– مهما ضخم واستطال– لا يحيق إلا بهم في نهاية المطاف ،لأن المؤمنين لا يخوضون المعركة وحدهم فالله وليهم وحسبهم، يرد كيد الكائدين عنهم [1] .

وقد ذكر القرآن الكريم نماذجا من محاربة وجهاء وكبراء الملأ ، من أقوام الرسل – عليهم السلام– للحق وأهله ، وصد الناس عن اتباعه ، حيث وردت هذه القاعدة والسنة في جميع قصص أنبياء الله – عليهم السلام – والوارد ذكرهم في القرآن الكريم ، كقوله تعالى عن قوم نوح – عليه السلام - : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف:60] ، وعاد قوم هود– عليه السلام – ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [الأعراف:66] ، وثمود قوم صالح – عليه السلام – ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:75] ، وأهل مدين قوم شعيب –عليه السلام - ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ [الأعراف:88] ، وغيرها من الآيات التي أشارت إلى سنة رعاية وجهاء كل أمة للباطل ، ومحاربتهم للحق وأهله ، لذا لا ينبغي أن يخشى أهل الحق من استقواء الباطل وأهله ، وبالتالي ينبغي ألا يتسلل الخوف والرهبة واليأس إلى قلوبهم .

---

[1] انظر : قطب ، سيد، في ظلال القرآن 1202/3.

المطلب الثاني: تعاضد أهل الباطل باختلاف مشاربهم ومعتقداتهم

ينبه الله –عز وجل– أهل الحق ويوجههم للالتفاف حول بعضهم ونبذ الخلاف ، ليكونوا صفا واحدا أمام عدوهم يصعب اختراقه ، قال تعالى :﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾ [الأنفال:73] ، قال ابن عاشور في المراد بالفساد في الآية الكريمة : ضد صلاح اجتماع الكلمة، فالمسلمون إذا لم يظهروا يدا واحدة على أهل الكفر لن تظهر شوكتهم، لأن الاختلاف يفضي إلى تفرق جماعتهم، فعليهم بالحرص على جامعة إسلامية، يظهر كمالها بالتفاف أهلها التفافا واحدا، وتجنب ما يضادها، فإذا لم يقع ذلك ضعف شأن جامعتهم في المرأى وفي القوة، وذلك فساد كبير [1] .

المتأمل لأحوال أهل الباطل في دفعهم وقتالهم وصدهم أهل الحق ، يجد أنهم في سبيل إقصاء الحق ومحاربة أهله، لا يترددون في التعاون فيما بينهم ، فيساند بعضهم بعضا بالرغم من وجود عداوة وتفرق واختلاف دين، قال تعالى :﴿ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [المائدة:64]، ولكن نجدهم في حربهم على الحق وأهله ، يتحدون ويتآزرون لاتحاد عقيدة الشرك لديهم ، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:51] ، قال الزمخشري:" إنما يوالى بعضهم بعضا لاتحاد ملتهم واجتماعهم في الكفر" [2] ، وقال أبو السعود: " بعضهم أولياء بعض متفقون على كلمة واحدة ، في كل ما يأتون وما يذرون،

---

[1] انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير 88/10.

[2] الزمخشري، محمود، الكشاف 642/1.

ومن ضرورته إجماع الكل على مضادتكم ومضارتكم بحيث يسومونكم السوء ويبغونكم الغوائل" [1]، وقال الشوكاني: " كل واحدة من الطائفتين توالي الأخرى ، وتعاضدها وتناصرها على عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وسلم، وعداوة ما جاء به وإن كانوا في ذات بينهم متعادين متضادين" [2] .

وسبب اتحادهم رغم تنوع اتجاهاتهم وأديانهم إنما لدفع الحق وأهله، هذا الحق المتمثل بالعقيدة الصافية ، والتي من أجلها قامت معارك الأنبياء ومواجهاتهم مع أقوامهم ، قال سيد قطب : يربي القرآن وعي المسلم بحقيقة أعدائه، وحقيقة المعركة التي يخوضها معهم ، إنها معركة العقيدة، فالعقيدة هي القضية القائمة بين المسلم وكل أعدائه، والتي يعادونه من أجلها، لأنهم فاسقون عن دين الله، ومن ثم يكرهون كل من يستقيم على دين الله [3].

ويؤكد الله –عز وجل– في موضع آخر هذه الولاية والاتحاد في مواجهة الحق بقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام:129] ، قال السعدي: " أن نولي كل ظالم ظالما مثله، يؤزه إلى الشر ويحثه عليه، ويزهده في الخير وينفره عنه، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها البليغ خطرها"[4] ، لأن من سنة الله تعالى في البشرية ، اجتماع البشر على ما توافق بينهم من الطبائع والرغبات،" الأفراد والجماعات يميل كل منهم إلى من على شاكلته في ذلك، ويتولى بعضهم بعضا في التعاون والتناصر فيما يشتركون فيه على من يخالفهم فيه " [5]، قال سيد قطب: نجعل بعضهم أولياء بعض ، بحكم ما بينهم من تشابه في الطبع والحقيقة واتفاق

---

[1] أبو السعود، محمد، إرشاد العقل السليم 48/3.

[2] الشوكاني، محمد، فتح القدير 57/2.

[3] قطب، سيد، في ظلال القرآن 908/2.

[4] السعدي، عبدالرحمن، تيسير الكريم الرحمن 273/1.

[5] رضا، محمد رشيد، تفسير المنار 88/8

في الوجهة والهدف، وبما ينتظرهم من وحدة في المصير. [1]

وهذا الاتحاد بالرغم من العداوة فيما بينهم، إنما هو حقيقة متجذرة منذ قدم التاريخ ،(فبعضهم أولياء بعض ولن يكونوا أولياء للجماعة المؤمنة على مر التاريخ، وقد مضت القرون ترسم مصداق هذه القولة الصادقة، وولي بعضهم بعضاً في كل فجاج الأرض، ولم تختل هذه القاعدة بل تحقق ما قرره القرآن الكريم، في صيغة الوصف الدائم، لا الحادث المفرد، واختيار الجملة الإسمية على هذا النحو(بعضهم أولياء بعض) ليست مجرد تعبير، إنما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل) [2] .

المطلب الثالث: تزيين أهل الباطل لباطلهم وتشويه الحق

من وسائل دفع أهل الباطل للحق ومحاربة أهله ، اللجوء إلى تشويه الحق بإثارة الشبهات والأكاذيب وتلبيس الحق لبوس الباطل ، وذلك لتنفير الناس من اتباع الحق ، قال تعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الأنعام112:113] ، قال الطبري: كما ابتلي سيدنا محمد ﷺ من مشركي قومه أعداء شياطين ، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول ، ليصدوهم بمجادلتهم إياه بذلك عن اتباعه والإيمان به ، كذلك ابتلي من قبله من الأنبياء ، بأن جعل الله لهم أعداء من قومهم يؤذونهم بالجدال والخصومات [3] .

---

[1] انظر : قطب، سيد، في ظلال القرآن 1208/3.

[2] انظر : المصدر السابق 911/2.

[3] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان 50/12.

إن أهل الباطل يروجون باطلهم وأكاذيبهم من خلال زخرفته وتزيينه والتغرير بالناس، وفي المقابل تشويه الحق لتسويق باطلهم ونشره، حيث " يلقي الملقي منهم القول، الذي زينه وحسنه بالباطل إلى صاحبه، ليغتر به من سمعه، فيضل عن سبيل الله" [1] ، وقد وصف الله –عز وجل– تشويه أهل الباطل للحق ، وتزيين باطلهم بالزخرف ،لأنه باطل مشوه ينفر الإنسان السوي عن قبوله واعتقاده ، لذا يحتاج المبطل لتزيين باطله حتى تتقبله النفوس المغرر بها، (الزخرف بمعنى الزينة، وإضافة الزخرف إلى القول للدلالة على أنه محتاج إلى التحسين والزخرفة، لكونه غير مشتمل على ما يكسبه القبول في حد ذاته، وذلك أنه كان يفضي إلى ضر، يحتاج قائله إلى تزيينه وتحسينه ، لإخفاء ما فيه من الضر، خشية أن ينفر عنه من يسوله لهم، فذلك التزيين ترويج يستهوون به النفوس)[2]، ووصف أيضا بالغرور وهو "الخداع والأطماع بالنفع لقصد الإضرار" [3]، قال محمد رشيد رضا: " يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المموه ، بما يظنون أنه يستر قبحه ويخفي باطله ، بطرق خفية دقيقة لا يفطن لباطلها كل أحد ليغروهم به " [4].

وقد جاء في القرآن الكريم محاولات أهل الباطل لتشويه الحق وتدليسه ، حيث نهى الله – عز وجل– أهل الكتاب عن التلبيس وكتم الحقائق ، التي جاءت في كتبهم السماوية كنعت سيدنا محمد ﷺ ونبوته، وعن إثارة الشبهات حول ما جاء في القرآن الكريم والتشكيك به ، قال تعالى منكرا عليهم :﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران:71]، قال ابن كثير:" يقول تعالى ناهيا لليهود عما كانوا يتعمدونه، من تلبيس الحق بالباطل، وتمويهه به،

---

[1] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان 51/12.

[2] انظر : ابن عاشور ، محمد الطاهر، التحرير والتنوير 8أ/10.

[3] المصدر السابق 8أ/10.

[4] رضا، محمد رشيد، تفسير المنار 7/8.

وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل، فنهاهم عن الشيئين معا، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به"[1] ، قال ابن عادل: " ولا تلبسوا الحق بسبب الشبهات التي توردونها على السامعين ، وذلك لأن النصوص الواردة في التوراة والإنجيل في أمر محمد ، كانت نصوصا خفية يحتاج في معرفتها إلى الاستدلال ، ثم إنهم كانوا يجادلون فيها ، ويشوشون وجه الدلالة على المتأملين فيها بإلقاء الشبهات " [2] ، والمراد باللبس:" الخلط والمزج ؛ لقوله: لبست عليه الأمر ألبسه خلطت بينه بمشكله" [3]، ومثيرو الشبهات والتدليس إنما يلجؤون إلى خلط باطلهم ببعض الحقائق لتسويق باطلهم ، والتأثير على الناس وتمرير كذبهم وبهتانهم.

المطلب الرابع: الإرجاف بأهل الحق لإضعاف عزيمتهم

من أساليب دفع أهل الباطل وحربهم على الحق ، دأبهم على نشر الأراجيف وبث الرعب بين أهل الحق، لإضعاف عزيمتهم واضطراب قلوبهم ، وتخويفهم وتخذيلهم بالفتن والإشاعات لتفريق جمعهم، وبالتالي يسهل عليهم هزيمتهم والتغلب عليهم ، والمراد بالإرجاف هو: " إشاعة الكذب والباطل للاغتمام به " [4] ، وأصله " التحريك من الرجفة وهي الزلزلة ، وصفت به الأخبار الكاذبة لكونها في نفسها متزلزلة غير ثابتة، أو لتزلزل قلوب المؤمنين واضطرابها منها[5] .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران:118]، قال الزجاج: البطانة الدخلاء الذين يستبطنون ويتبسط إليهم، والمعنى أن المؤمنين

---

[1] ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم 245/1.

[2] ابن عادل، عمر، اللباب في علوم الكتاب 20/2.

[3] المصدر السابق 20/2.

[4] القرطبي، محمد، الجامع لأحكام القرآن 246/14.

[5] الآلوسي، محمود بن عبدالله ، روح المعاني 265/11.

أمروا ألا يداخلوا المنافقين ولا اليهود، وذلك أنهم كانوا لا يبقون غاية في التلبيس على المؤمنين، فأمروا بألا يداخلوهم لئلا يفسدوا عليهم دينهم، وأخبر الله المؤمنين بأنهم لا يألونهم خبالا، أي لا يبقون غاية في إلقائهم فيما يضرهم ، فمعنى العنت إدخال المشقة والأذى على الإنسان [1] ، وقوله تعالى : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب:60]، قال الآلوسي: المرجفون هم اليهود الذين ينشرون أخبار السوء الملفقة عن سرايا المسلمين ، وغيرها من الأراجيف الملفقة للمبالغة في الأذية " [2]، وإن كانت الآية خاصة باليهود والمنافقين في زمن الرسول ﷺ، فهي تنبيه للمسلمين في كل زمان ، أن يحذروا أهل الباطل على مختلف أديانهم وانتمائهم .

ومن النماذج التي ذكرها القرآن الكريم لإرجاف أهل الباطل بأهل الحق ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف:127] ، بينت الآية الكريمة إرجاف أكابر قوم فرعون بسيدنا موسى – عليه السلام– ومن معه ، واتهامهم بالإفساد في الأرض، بل وتحقيرهم وتحطيم معنوياتهم ، بالقول إنا فوقهم قاهرون بما أعطاه الله من سلطة وجاه ،قال ابن عطية :" يريد في المنزلة والتمكن من الدنيا، وقاهرون يقتضي تحقير أمرهم ، أي هم أقل من أن يهتم بهم" [3]، وذلك إضعافا لعزيمتهم وتخويفهم وبث الرعب في نفوسهم ، وبالتالي التخلي عن دعوة الحق التي جاء بها موسى – عليه السلام– ، وهو حال جميع من يجاهد في سبيل إحقاق الحق في وجه الباطل .

وقد جاء في القرآن الكريم آيات تحث أهل الحق على الثبات في مقابل إرجاف أهل الباطل ،

---

[1] الزجاج ، إبراهيم بن السري ، معاني القرآن وإعرابه 462/1.

[2] الآلوسي، محمود بن عبدالله ، روح المعاني 265/11.

[3] ابن عطية، عبدالحق، المحرر الوجيز 441/2.

وتحصينهم ضد كل ما يضعف معنوياتهم وعزائمهم ، كقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران173:175] ، فالآية تذكر إرجاف المرجفين المنافقين بالمسلمين بإشاعة ما يثبط هممهم، وتحذير الله – عز وجل – لهم من الاستماع للمثبطين ، وربط هذا النهي بإيمانهم وخوفهم من الله وحده وليس من الناس ، قال الزمخشري:" فلا تخافوهم فتقعدوا عن القتال وتجبنوا ، وخافون فجاهدوا مع رسولي وسارعوا إلى ما يأمركم به ، إن كنتم مؤمنين يعنى أن الإيمان يقتضى أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس ولا يخشون أحدا إلا الله"[1].

وقال تعالى :﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران:186]، يوصي الله – عز وجل – أوليائه بالثبات وعدم التأثر والجزع، والصبر على الأذى اللفظي والأراجيف التي يبثها أهل الباطل بينهم، قال الرازي :" أن الكفار بعد أن آذوا الرسول والمسلمين يوم أحد، فسيؤذونهم أيضا في المستقبل بكل طريق يمكنهم، من الإيذاء بالنفس والإيذاء بالمال، والغرض من هذا الإعلام أن يوطنوا أنفسهم على الصبر وترك الجزع، وذلك لأن الإنسان إذا لم يعلم نزول البلاء عليه، فإذا أنزل البلاء عليه شق ذلك عليه، أما إذا كان عالما بأنه سينزل، فإذا نزل لم يعظم وقعه عليه" [2] .

فالحرب بين أهل الحق وأهل الباطل لا تأخذ الشكل العسكري فقط ، بل لها أشكال ووسائل

---

[1] المصدر السابق 443/1.

[2] الرازي، محمد، مفاتيح الغيب 453/9.

متعددة، كالحرب النفسية والاقتصادية والإعلامية وغيرها ، " أعداء الإسلام على اختلافهم وتعددهم لم يألوا جهدا في استخدام أسلوب إثارة الرعب ضد المسلمين، للوصول إلى أهدافهم الموحدة وهي القضاء على الإسلام والمسلمين ، عن طريق حربهم النفسية العشواء ، التي لم يفتأوا أن يبثوها في كل موقف وأعقاب كل حادثة ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام، قد واجهوا هذه الحرب النفسية بأساليب متميزة، وقاضية على كل أسلوب استخدمه أعداء الإسلام ، نعم لأنهم يتمتعون بسلاح الإيمان والصبر والمثابرة "[1] .

[1] انظر: المخلف، محمد بن مخلف بن صالح (1413هـ/1993م)، الحرب النفسية في صدر الإسلام (العهد المدني)، دار عالم الكتب للطباعة والنشر، الرياض، الطبعة الثانية ، ص441.

الفصل الثالث

وسائل الدفع في القرآن الكريم

- **ويشتمل على المباحث الآتية:**

المبحث الأول:الدفع بالتأييد الإلهي.

المبحث الثاني: الدفع بمباشرة أهل الحق لأسبابه.

تمهيد:

وعد الله – عز وجل – بأن يهيئ جنوداً وأسباباً، للدفاع عن عباده المؤمنين أتباع الحق ، في وجه الباطل وأتباعه و بشتى ، الوسائل سواء بالتأييد الإلهي أو بمباشرة أهل الحق لأسبابه ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج:38] ، ويتحقق دفاع الله – عز وجل – عن عباده في مقابل التزام شرعه وأمره ، والإنضواء تحت راية الحق لرفع كلمة الله وتبليغ دينه ، فمن حفظ دين الله وانقاد لأوامره ، يحفظه الله –عز وجل – ويدافع عنه ، قال رسول الله ﷺ في وصيته لابن عباس – رضي الله عنه – : "يا غلام، إني معلمك كلماتٍ: احفظ الله يَحفظْك، احفظ الله تَجدْه تجَاهَك، وإذا سألتَ فاسأل الله ، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله، واعلمْ أنَ الأمّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَت الأقلامُ وجَفتِ الصُّحُفُ" [1] .

للدفع وسائل وأساليب ؛ والقرآن الكريم حافل بذكر وسائل الدفاع عن المؤمنين وتطبيقاتها ، ومن تلك الوسائل التأييد الإلهي عن طريق: التثبيت الدائم للمؤمنين وصرف كيد أهل الباطل عنهم، وتسليط العذاب الدنيوي واستئصال أهل الباطل ، ومن الوسائل أيضا مباشرة أهل الحق عن طريق تسخير الأسباب لهم وتأييدهم عن طريق الجهاد : بالبيان وهو جهاد الكلمة ، أو بالسنان وقتال أهل الباطل، وسيأتي توضيح ذلك في مباحث هذا الفصل.

---

[1] ابن حنبل، أحمد بن محمد ، مسند الإمام أحمد بن حنبل ، مسند بني هاشم، مسند عبدالله بن عباس ، حديث رقم (2669)، صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (2382) 496/5.

المبحث الأول : الدفع بالتأييد الإلهي

المطلب الأول: الدفع بتثبيت أهل الحق وصرف كيد أهل الباطل

من وسائل الدفع الإلهي عن أوليائه المؤمنين نصرتهم ونجاتهم من مكائد الكفار والمنافقين، وكلما كان العبد إلى الله –عز وجل – أقرب كانت دفع الله عنه أسرع وأقوى ، قال ابن القيم :" وأنه يدفع عن عباده المؤمنين ما لا يدفعون عن أنفسهم، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوهم، ولولا دفاعه عنهم لتخطفهم عدوهم واجتاحهم ، وهذه المدافعة عنهم بحسب إيمانهم وعلى قدره، فإن قوي الإيمان قويت المدافعة، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"[1].

ولعل السبب لدفاع الله – عزو جل– عن أوليائه ، أن الأذى الذي يلحقهم من أهل الباطل ، فكأنما هو آذىً له تعالى، فعن أبي هريرة– رضي الله عنه– عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب " [2]، ففي الحديث ما يدل على مكانة أولياء الله –عزو جل– ، ومن يتعرض لهم بسوء فالله كفيل برد الأذى عنهم ممن أعلن الحرب عليهم ، فلا يتخلى عن أوليائه ولا يسلمهم لأعدائهم، وإن تأخرت النصرة لأن من سنته تعالى إمهال الظالمين واستدراجهم .

- وفيما يلي عرضٌ لبعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن التثبيت، والنماذج التطبيقية له:

أولا : الآيات في القرآن الكريم التي تثبت معية الله –عز وجل – وتوليه لأوليائه كثيرة منها:

---

[1] ابن القيم ، محمد ، زاد المعاد في هدي خير العباد 7/3.

[2] البخاري، محمد بن إسماعيل ، الجامع الصحيح، كتاب الرقاق ، باب التواضع ، حديث رقم (6502).

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾[البقرة:257] ، قال الطبري في المقصود بقوله ولي الذين آمنوا :" نصيرهم وظهيرهم، يتولاهم بعونه وتوفيقه " [1] .

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ [محمد:11]، قال الزجاج: "اللَّه ولي الذين آمنوا يتولاَّهم في جميع أمورِهم في هدايتهم والنصر على عدوهم " [2] ، وقال القاسمي : " الله ولي الذين آمنوا أي حافظهم وناصرهم" [3] ، وقال سيد قطب :" ومن كان الله مولاه وناصره فحسبه، وفيه الكفاية والغناء وكل ما قد يصيبه إنما هو ابتلاء وراءه الخير ، لا تخليا من الله عن ولايته له، ولا تخلفا لوعد الله بنصر من يتولاهم من عباده، ومن لم يكن الله مولاه فلا مولى له، ولو اتخذ الإنس والجن كلهم أولياء، فهو في النهاية مضيع عاجز، ولو تجمعت له كل أسباب الحماية، وكل أسباب القوة التي يعرفها الناس" [4].

قوله تعالى :﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج:78] ، قال الشوكاني : اجعلوا الله – عز وجل – عصمة لكم مما تحذرون، والتجئوا إليه في جميع أموركم، ولا تطلبوا ذلك إلا منه ، فهو مولاكم و ناصركم ومتولي أموركم دقيقها وجليلها فنعم المولى ونعم النصير، لا مماثل له في الولاية لأموركم والنصرة على أعدائكم [5].

قوله تعالى :﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [يونس:62] ، قال أبو السعود : صدرت الجملة بحرفي التنبيه والتحقيق لزيادة تقرير مضمونها ، لا خوف عليهم في

---

[1] الطبري ، محمد ، جامع البيان 424/5.

[2] الزجاج ، إبراهيم ، معاني القرآن وإعرابه 8/5.

[3] القاسمي ، محمد ، محاسن التأويل 2/ 195.

[4] قطب ، سيد ، في ظلال القرآن 3290/6.

[5] الشوكاني ، محمد ، فتح القدير 557/3 .

الدارين من لحوق مكروه ، ولا هم يحزنون من فوات مطلوب أي لا يعتريهم ما يوجب ذلك ، والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعا ، والنفي إن دخل على نفس المضارع يفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام [1] ، قال محمد رشيد رضا:" المراد أنهم لا يخافون في الدنيا كخوف الكفار ولا يحزنون كحزنهم، وأما أصل الخوف والحزن فهو من الأعراض البشرية التي لا يسلم منها أحد في الدنيا "[2].

وفي مقابل ذلك آيات كثيرة قرنت بها ، تثبت أن الكفار لا مولى لهم ، مما يعزز في نفوس المؤمنين الثقة بمعية الله – عز وجل – ونصرتهم ولو بعد حين .

ثانيا: في القرآن الكريم نماذج لكيفية إنجاء الله – عز وجل – وتأييده وحفظه لأوليائه، من هذه النماذج :

حمايته وحفظه لخليله إبراهيم –عليه السلام – من كيد قومه، لما أرادوا الإضرار به بعد أن حطم أصنامهم ، فرموه في النار ليحرقوه، فسلبها تعالى بقدرته خاصية الإحراق، قال تعالى : ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء68 :70] ، قال الشوكاني :" قال بعضهم لبعض لما أعيتهم الحيلة في دفع إبراهيم، وعجزوا عن مجادلته، وضاقت عليهم مسالك المناظرة: حرقوا إبراهيم، انصرافا منهم إلى طريق الظلم والغشم، وميلا منهم إلى إظهار الغلبة بأي وجه كان، وعلى أي أمر اتفق "[3] ، فرد الله – عز وجل – كيدهم في نحورهم ودفع عن خليله سيدنا ابراهيم – عليه السلام – ونجى منهم .

---

[1] انظر :أبو السعود ، محمد ، إرشاد العقل السليم 158/4.

[2] انظر: رضا ، محمد رشيد ، تفسير المنار 341/11 .

[3] الشوكاني ، محمد ، فتح القدير 489/3.

ونجاة سيدنا يوسف – عليه السلام– من المكائد التي حيكت ضده من أخوته ، وتثبيته أمام إغواء امرأة العزيز ومحاولتها استدراجه والتي قصها القرآن الكريم ، قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف:24] ، واجتماع النسوة عليه بمكرهن قال تعالى :﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يوسف34:33] ، قال الرازي: اجتمع في حق يوسف جميع جهات الترغيب على موافقة زوجة العزيز وجميع جهات التخويف على مخالفتها، فقد كانت في غاية الحسن وذات مال وثروة، وكانت على عزم أن تبذل الكل ليوسف حتى يطاوعها في مطلوبها، كما اجتمعت النسوة عليه بمكرهن لترغيبه تارة وتخويفه تارة ، وتخوفه من شرها وإقدامها على قتله وإهلاكه، فخاف – عليه السلام– أن تؤثر هذه الأسباب القوية الكثيرة فيه، لأن القوة البشرية والطاقة الإنسانية لا تفي بحصول العصمة القوية، لذلك التجأ إلى الله تعالى وقال: (قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ)، فطلب من الله سبحانه وتعالى أن يحدث في قلبه أنواعا من الدواعي المعارضة النافية لدواعي المعصية إذ لو لم يحصل ذلك لوقع في المعصية ، وهو المراد بقوله: (أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ) [1] ، فلما دعا سيدنا يوسف –عليه السلام – جاءه العون من الله فعصمه من الزلل ودفع كيد الكائدين وثبته على الحق.

فالنفس الإنسانية جبلت وطبع فيها الميل لداعي المعصية والأمر بالسوء والوقوع بالذنب ، فلا يردعها عن ذلك سوى الإيمان وتقوى وخشية من الله – عز وجل – وقال السعدي :" وإن كان

---

[1] انظر : الرازي ، محمد ، مفاتيح الغيب 452/18.

العبد مؤمنا كامل الإيمان ، فإن الهم الطبيعي إذا قابله ذلك الإيمان الصحيح القوي ، منعه من ترتب أثره، ولو كان الداعي قويا، ولهذا كان يوسف من أعلى هذا النوع، قال تعالى: ﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف:24] ، لاستخلاص الله إياه، وقوة إيمانه وإخلاصه، خلّصه الله من الوقوع في الذنب " [1].

و حفظ الله –عز وجل – رسوله ﷺ وصاحبه الصديق – رضي الله عنه– ، من محاولة قريش للإضرار به ، عندما خرج من مكة على إثر تدبير قومه له مكيدة التخلص منه ، واختفيا في الغار، قال تعالى:﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة:40] ، قال الطبري : إعلام من الله –عز وجل – بأنه المتوكل بنصر رسوله ﷺ على أعداء دينه وإظهاره عليهم ، سواء أعانه أصحابه رضوان الله عليهم أو لم يعينوه، وإن لم ينفروا مع رسوله إذا استنفرهم فينصرونه، فالله ناصره ومعينه على عدوه ، ومغنيه عنهم وعن معونتهم ونصرتهم؛ كما نصره عندما أخرجته قريش من وطنه وأبا بكر رضي الله عنه[2]

كما أيد الله – عز وجل – بجنوده جيوش المسلمين، في حياة الرسول ﷺ في غزواتهم ضد معسكر الباطل، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

---

[1] السعدي ، عبدالرحمن ، تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن 277/1.

[2] انظر: الطبري ، محمد ، جامع البيان 257/14.

[الأحزاب9 :11] ، يمتن الله –عز وجل– في الآية على المسلمين يوم الخندق ويذكرهم بفضله لما صرف كيد المشركين عنهم ، بأن سخر جنوده من ريح باردة وملائكة مقاتلة ، وكفاهم بأس القتال ودفع عنهم ، قال الزمخشري :اذكروا ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب وهو يوم الخندق، إذ جاءتكم جنود وهم الأحزاب، فأرسل الله عليهم ريح الصبا في ليلة شاتية ، وسفت التراب في وجوههم ، وجنودا لم تروها وهم الملائكة وكانوا ألفا، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب وأطفأت النيران وأكفأت القدور، وماجت الخيل بعضها في بعض، وقذف في قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم [1] ، قال تعالى :﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّٗا عَزِيزٗا ﴾ [الأحزاب:25] ، فرد الله أعداءهم خائبين مدحورين ، لم ينالوا منهم بفضل الله – عز وجل – الذي دفع عنهم بأسهم .

وفي قوله تعالى : ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾ [الزُّمَر:36] ، يقرر الله –عز وجل – في هذه الآية نصرته لأوليائه، وكف أذى أهل الباطل وكيدهم عنهم ، فقد جاء تأكيد هذه الحقيقة بلفتة بلاغية، وهي إدخال همزة الإنكار على أداة النفي ، قال الزمخشري: أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي، فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها، أليس الله بكاف رسوله بأن يعصمه من كل سوء، ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف، ويجوز أن يريد: العبد والعباد على الإطلاق، لأنه كافيهم في الشدائد وكافل مصالحهم ، وفيه وعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم من أعدائهم، وينصرهم عليهم [2]، وقال الرازي: جرت العادة أن المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة ، فحسم الله – عز وجل – ذلك بقوله:(أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ

---

[1] انظر : الزمخشري ، محمود ، الكشاف 3/ 526 .

[2] انظر: الزمخشري ، محمود، الكشاف 129/4 .

عَبْدَهُۥ)، وذكره بلفظ الاستفهام والمراد تقرير ذلك في النفوس، وقد قرأت جماعة [1] عباده بلفظ الجميع ، والمراد بالعباد هم الأنبياء فإن نوحا كفاه الغرق، وإبراهيم النار، ويونس بالإنجاء مما وقع له، فهو تعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك، وقيل أمم الأنبياء قصدوهم بالسوء لقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر:5] ، وكفاهم الله شر من عاداهم [2] .

كما تكفل الله – عز وجل – بإنزال السكينة على أهل الحق، وإلقاء الرعب في قلوب أهل الباطل عند المواجهة إمعانا في هزيمتهم وانهزامهم أمام قوة أهل الحق وغلبتهم ، قال تعالى : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران:151] ، ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال:12]، قال الطبري : سيلقى الله في قلوب من حارب أولياءه الرعب، وهو الجزع والهلع، وذلك وعد من الله جل ثناؤه لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنصر على أعدائهم والتغلب عليهم، ما استقاموا على عهده وتمسكوا بطاعته[3]، وعد لرسوله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم ولأتباع الحق على مر الزمان ، قال الزمخشري :" ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفرة، ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم واجتماعهما غاية النصرة " [4] .

---

[1] قرأ حمزة و الكسائى {بكاف عبده} جماعا ، وقرأ الباقون {بكاف عبده} واحدا ؛ ابن مجاهد ، أحمد بن موسى ، السبعة في القراءات ، ص562.

[2] انظر : الرازي ، محمد ، مفاتيح الغيب 453/26 .

[3] انظر :الطبري ، محمد ، جامع البيان 279/7 .

[4] الزمخشري ، محمود ، الكشاف 204/2.

ومن الأمثلة على الدفع الإلهي بتثبيت الله –عز وجل – لأوليائه ، بأن قص على نبيه ﷺ ولأمته من بعده في القرآن الكريم خبر الأولين، وهلاك أهل الباطل لما حاربوا الحق وأهله ، قال تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود:120] ، قال الزجاج :" ومعنى تثبيت الفؤاد تسكين القلب، وهو ههنا ليس للشك، ولكن كلما كان الدلالة والبرهان أكثر كان القلب أثبت، كما قال إبراهيم:(ولكن ليطمئن قلبي)"[1] ،قال ابن عطية: " نؤنسك فيما تلقاه، ونجعل لك الأسوة في من تقدمك من الأنبياء" [2] .

ومن وسائل دفع الله عن أوليائه تثبيتهم بالحجة والدليل والسلطان؛ ليدفعوا حجج خصومهم وشبهاتهم ، وتأييدهم بالمعجزات التي يعجز البشر عن مجاراتها ، لتكون علامة وبرهانا على صدقهم ، قال تعالى عن سيدنا إبراهيم – عليه السلام :﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:83]، قال الزمخشري :" وتلك إشارة[3] إلى جميع ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه" [4] ، وعن سيدنا موسى – عليه السلام –لما أيده الله بالحجج و بالمعجزات ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود:96] ، قال ابن عاشور:" السلطان البرهان المبين، أي المظهر صدق الجائي به، وهو الحجة العقلية أو التأييد الإلهي" [5] ، وتأييده تعالى لسيدنا داود –عليه السلام – قال تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ

---

[1] الزجاج ، إبراهيم ، معاني القرآن وإعرابه 84/3.

[2] ابن عطية ، عبدالحق ، المحرر الوجيز 216/3.

[3] قال الزمخشري :من قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٰٔفِلِينَ ﴾ [الأنعام:76] إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام:82] ، الكشاف 43/2.

[4] المصدر السابق 43/2.

[5] ابن عاشور ، محمد الطاهر ، التحرير والتنوير 155/12.

وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص:20]، قال ابن عاشور : تقوية ملكه بسلامته من أضرار ثورة لديه، ومن غلبة أعدائه عليه في حروبه، وآتاه النبوة والحكمة والعلم بالأشياء كما هي ، والعمل بالأمور على ما ينبغي، فقد اشتمل الزبور على جملة من الحكم، وفصل الخطاب: بلاغة الكلام وجمعه للمعنى المقصود، فلا يحتاج سامعه إلى زيادة تبيان، أي أن داود أوتي من أصالة الرأي وفصاحة القول ما إذا تكلم جاء بكلام فاصل بين الحق والباطل شأن كلام الأنبياء والحكماء[1] .

كما أيد نبيه يوسف – عليه السلام بالحكمة والعلم والحجة، قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:22] ، قال محمد رشيد رضا: لما بلغ سيدنا يوسف – عليه السلام – رشده وكمال قوته وشدته باستكمال نموه البدني والعقلي، أوتي حكما إلهاميا بما يعرض له أو عليه من النوازل والمشكلات مقرونا بالحق والصواب، وعلما بحقائق ما يعنيه من الأمور[2] ، وسيدنا لوط – عليه السلام – قال تعالى : ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾ [الأنبياء:74]، وهكذا مع جميع أنبياء الله المؤيدين من قبله، بالحجة البالغة والمعجزة الناطقة بالحق الدامغة للباطل .

المطلب الثاني: الدفع بالعذاب الدنيوي واستئصال أهل الباطل

لله – عز وجل – جنود يسلطهم على الظالمين المناوئين للحق وأهله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ [المدَّثر:31]، تتنزل عليهم ليؤيد الله تعالى بهم أهل الحق ، ينصرهم ويخذل عدوهم المتسلط والمتجبر، وقد ذكر القرآن الكريم أخبار الأمم السابقة التي أهلكها الله بعذاب فاستأصلها ، لاستحقاقهم ذلك نظرا لتكذيبهم برسله وطغيانهم ، وتجبرهم على خلقه

---

[1] انظر : المصدر السابق 229/23 .

[2] انظر: رضا ، محمد رشيد ، تفسير المنار 226/12 .

واستعلائهم على أوليائه ، قال السعدي: "عقوبات الله للأمم الطاغية عند تناهي طغيانها وتفاقم جرائمها، فكفرهم وتكذيبهم موجب للهلاك، ولكن تحتم الإهلاك عند تناهي إجرامهم؛ لأن الله تعالى بالمرصاد، فيمهل ثم يمهل حتى إذا أخذهم، أخذهم أخذ عزيز مقتدر"[1] ، وتتلخص سنة الله تعالى في إهلاك الطغاة ، ونجاة أهل الحق في قوله تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:40] .

ومن الامثلة على ذلك ؛ قوم نوح–عليه السلام – لما تسلطوا على نبيهم وخاصموه واستهزؤا به ، سلط الله عليهم عقابه فأغرقهم ودفع شرهم، ونجى نبيه ومن معه على الفلك ، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [القمر9 :15] ، قال البقاعي: لما أيس من أجابتهم وأنه مغلوب من قومه كلهم بالقوة والمنعة لا بالحجة، دعا الله –عز وجل لينصره بصيغة التأكيد ، واستجاب لدعائه سبحانه، ففتح السماء فتحاً يليق بعظمته أبواب السماء كلها في جميع الأقطار، بماء منهمر أي منصب بأبلغ ما يكون من السيلان والصب عظماً وكثرة، ولم يقل: بمطر، لأنه خارج عن تلك العادة، واستمر ذلك أربعين يوماً ، وصدع وشق جميع عيون الأرض [2] ونجى نبيه ومن آمن معه على الفلك ودفع بعقابه المكذبين ، قال السعدي: " وكان في ذلك آية على أن ما جاء به نوح من التوحيد والرسالة والبعث والدين حق، وأن من خالفه فإنه مبطل، ودليل

---

[1] السعدي ، عبدالرحمن ، تيسير اللطيف المنان 197/1.

[2] انظر : البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن ، (ت 885هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (تحقيق: عبدالرزاق غالب المهدي) ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الاولى ، 1995م ، 350/7.

على الجزاء في الدنيا لأهل الإيمان بالنجاة والكرامة، ولأهل الكفر بالهلاك والإهانة" [1] ، قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأنبياء76 :77] .

وأهلك عاداً بريح صرصر عاتية تقتلعهم لما كذبوا وآذوا رسولهم هوداً –عليه السلام –، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر19 :20] ، قال أبو السعود : أي أرسلنا عليهم ريحا باردة أو شديدة الصوت إلى أن أهلكتهم ، تقلع الناس حيث روي أنهم دخلوا الشعاب والحفر، وتمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح وصرعتهم موتى ، كأنهم أعجاز نخل منقلع عن مغارسه ، وقيل شبهوا بأعجاز النخل وهي أصولها بلا فروع ، لأن الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقي أجسادا وجثثا بلا رؤوس [2] ، قال تعالى :﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود:58] .

وكذلك أهلك ثمود بالطاغية لما تسلطوا على نبي الله –عز وجل – ، فدفع عنه بأن سلط على أعداءه عقابه وعذابه، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ [القمر:31]، قال ابن كثير:" فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات" [3] ، ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [فُصِّلَت17 :18] ، فنجى الله عباده وتولى بقدرته وحوله دفع الظالمين اتباع الباطل .

---

[1] السعدي ، عبدالرحمن ، تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن 184/1.

[2] انظر : أبو السعود، محمد ، إرشاد العقل السليم 170/8.

[3] ابن كثير ، إسماعيل ، تفسير القرآن العظيم 480/7.

كما صرف الله عن موسى –عليه السلام – كيد أهل الباطل فرعون وملأه ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الصافات114 :116] ، طغى فرعون وقومه وتجبروا على موسى ومن معه من أتباعه، فدفع الله – عز وجل – بأسهم بأن أرسل عليهم أنواع الابتلاءات التي أظهرت حقيقة ضعفهم وهوانهم ، قال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف:133] ، وعندما خرج سيدنا موسى– عليه السلام – من ظلم وطغيان فرعون وجنوده، دب الرعب في قلوب أتباع موسى لما حاصرهم البحر من أمامهم ، وفرعون وجنوده من خلفهم، وقالوا بنبرة الضعف واليأس أنهم لمدركون جاء الإنقاذ والرعاية الربانية، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الشعراء61 :65] ،(ضرب البحر فانشق اثني عشر فرقا ، فكان كل فرق كالجبل الضخم ، بينهما مسالك سلكوها لم يبتل منها سرج الراكب ولا لبده) [1].

---

[1] جلال الدين ، محمد بن أحمد المحلي (ت 864هـ) وعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911هـ)، تفسير الجلالين، دار الحديث – القاهرة ، الطبعة الأولى، ص484؛ اللبد كل شعر وصوف تلبد فهو لبد ، انظر : الفراهيدي ، الخليل ، العين 44/8.

المبحث الثاني : الدفع بمباشرة أهل الحق لأسبابه

تمهيد:

ذكر القرآن الكريم صورتين للدفاع عن الحق وأهله ، يأخذ بهما أهل الحق فيحصلون على المطلوب بتأييد الله – عز وجل – لهم ، وتمكينهم من الأخذ بهما ، فإذا ما أخذوا بالأول منهما قبل الثاني ، وتدرجوا في الإعداد والإستعداد حصل لهم الدفع ، وأنزل الله تعالى تأييده ونصره ، واستمرت دَوْلتهم ، وطالت دُولتهم على أهل الباطل ، وهاتان الصورتان هما : الدفع باللسان ، والمقارعة بالسنان، وتتدرجان تحت مسمى الجهاد في سبيل الله .

وقد عرف شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– الجهاد بأنه "بذل الوسع، وهو القدرة في حصول محبوب الحق ودفع ما يكرهه الحق" [1] ، وكذلك بين أن حقيقة الجهاد هي" الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ؛ ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان"[2] ، وعرفه الحافظ ابن حجر:" الجهاد شرعا: بذل الجهد في قتال الكفار، ويطلق أيضا على مجاهدة النفس والشيطان والفساق، فأما مجاهدة النفس ؛ فعلى تعلم أمور الدين، ثم على العمل بها ثم تعليمها، وأما مجاهدة الشيطان ؛ فعلى ما يأتي به من الشبهات، وما يزينه من الشهوات ، وأما مجاهدة الكفار؛ فتقع باليد والمال واللسان والقلب ، وأما مجاهدة الفساق ؛ فباليد ثم اللسان ثم القلب "[3] ، وبناءً على تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله – عرف الشيخ

---

[1] ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم ، (ت 728هـ)، مجموع الفتاوي، (المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم) مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1416هـ/1995م، 192/10.

[2] ابن تيمية ، أحمد ، مجموع الفتاوي 191/10.

[3] ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي(ت 852هـ) ، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة – بيروت، 1379هـ، 3/6.

عبدالرزاق البدر الجهاد في المفهوم الشرعي بأنه " اسم جامع لسلوك كل سبب ووسيلة، لتحقيق ما يحبه الله تعالى ويرضاه ، من الأفعال والأقوال والاعتقادات ، ولدفع ما يكرهه الله سبحانه ويبغضه من الأفعال والأقوال والاعتقادات "[1] .

فدفع أهل الباطل وتحييد باطلهم من الأعمال التي يحبها الله ، ويحث عليها أهل الحق لأن في دفعهم نصرةً لدينه وإعلاءً لراية الحق ورفع المظالم وانحسار المفاسد ، والدفع بواسطة الجهاد لا تنحصر صوره بالقتال والعمل العسكري فقط ، وإنما يشمل جهاد الكلمة بكافة الوسائل، نحو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكشف الشبهات التي يثيرها أعداء الحق وخصومه، للنيل من الحق وإضعافه سواء من داخل المجتمع المسلم أو من خارجه، قال ابن القيم :"جهاد الكفار أخص باليد ، وجهاد المنافقين أخص باللسان"[2] ، قال عبدالرزاق البدر:" فالكفار أخص باليد ؛ لأن عداوتهم ظاهرة ، والمنافقون أخص باللسان ؛ لأن عداوتهم باطنة وخفية، وهم تحت قهر أهل الإسلام، فيجاهدون بالحجة والبيان"[3]، فالجدال بالحق وكشف الشبهات لاسيما مع المعارض للحق، إنما هو من الجهاد المطلوب بل من" أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض، مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه " [4] ، وفيما يلي بيان ذلك المطلبين .

---

[1] البدر، عبدالرزاق بن عبدالمحسن (1425هـ) القطوف الجياد من حكم وأحكام الجهاد، دار المغني، الرياض، الطبعة الأولى ، ص5.

[2] ابن القيم ، محمد ، زاد المعاد في هدي خير العباد 10/3.

[3] البدر، عبدالرزاق بن عبدالمحسن ، القطوف الجياد من حكم وأحكام الجهاد، ص13.

[4] ابن القيم ، محمد ، زاد المعاد في هدي خير العباد 5/3.

المطلب الأول : الدفع بالبيان

من وسائل دفع أهل الباطل وتعرية باطلهم ، بإقامة الحجة والبرهان على الخصوم ، وبدعوتهم للحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبمناظرتهم ومجادلتهم للتصدي للشبهات المثارة حول الحق والدفاع عنه ، قال تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل:125] ، فعند القيام بدفع الباطل ومجادلة مثيري الشبهات ، ينبغي مراعاة مناسبة أسلوب الدعوة والمجادلة والمناظرة ، لأحوال المتلقين على اختلاف مستوياتهم وأفهامهم ومواقفهم ،(فمنهم الراغبون في الخير ممن لديهم الاستعداد لفعل المأمورات وترك المنهيات، فيكتفى معهم بالبيان والتوجيه بالحكمة والتلطف معهم ، ومنهم غافلون عن اتباع الحق، فهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب؛ بذكر ما يترتب على الحق من المنافع، وعلى الباطل من المضار، ومنهم المعارضون للحق المعاندون ، و المكابرون بنصرة الباطل، فهؤلاء لا بد أن يسلك معهم طريق المجادلة بالتي هي أحسن ، بحسب ما يليق بالمجادِل والمجادَل ، وبتلك المقالة وما يقترن بها)[1] .

والجدال منه ما هو محمود، إن كان لإحقاق الحق وإظهاره ، ومنه ما هو مذموم إن كان لطمس الحقيقة ودفع الحق والمكابرة عن الأخذ به ، قال تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغُرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ [غافر:4] ، قال الرازي :" الجدال نوعان: جدال في تقرير الحق، وجدال في تقرير الباطل، أما الجدال في تقرير الحق فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام ، وأما الجدال في

---

[1] انظر: السعدي ، عبدالرحمن ، تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن 354/2، بتصرف يسير.

تقرير الباطل فهو مذموم " [1] ، قال ابن كثير :" ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ، إلا الذين كفروا الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه "[2].

وقد جاء في القرآن الكريم بيان لأساليب الأنبياء – عليهم السلام – في مناظرة أقوامهم ، لإقامة الحجة ودفع الباطل ، وتتميز المناظرة عن غيرها من وسائل تفنيد الشبهات وإبطال الحجج ، بإفحام الخصم ومجاراته في معتقده حتى يقرر بنفسه خطأ معتقده و بطلان رأيه ، أي " إلزام الخصم بالطرق الواضحة التي يعترف بها أهل العقول، وإلجاؤه إلى الاعتراف ببطلان مذهبه، وإقامة الحجة على المعاندين وإرشاد المسترشدين" [3].

كما حصل مع سيدنا إبراهيم –عليه السلام – من مناظرة قومه عندما حطم أصنامهم ، ومجاراة لهم لما سألوه عمن حطم الأصنام، فأشار إلى الكبير من الأصنام ، فأسقط بأيديهم وضرب معتقدهم في الصميم، وأثبت أنها لن تستطع الإجابة فضلا عن حماية نفسها ودفع الأذى عنها ، قال تعالى :﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء62 :65] ، قال البقاعي : " ولما كان روح الكلام إقراره بالفعل وجعلهم موضع الهزء، لأنهم عبدوا ما لا قدرة له على دفاع أصلاً، تسبب عنه قوله تعالى الدال على خزيهم: فرجعوا إلى أنفسهم بمعنى أنهم فكروا فيما قال، فاضطرهم الدليل إلى أن تحققوا أنهم على محض الباطل " [4] .

---

[1] الرازي ، محمد ، مفاتيح الغيب 485/27.

[2] ابن كثير ، إسماعيل ، تفسير القرآن العظيم 129/7.

[3] السعدي ، عبدالرحمن ، تيسير اللطيف المنان 211/1.

[4] البقاعي، إبراهيم ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور 94/5.

ومناظرة أخرى من مناظراته – عليه السلام – مع قومه ، عندما أراد أن يبين خطأ معتقدهم في عبادة الكواكب، دعاهم إلى النظر في حقيقة هذه الكواكب وإن كانت تستحق العبادة ، قال تعالى :﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾ [الأنعام:76] ، وتدرج معهم إلى أن أقيمت الحجة عليهم، واتضح زيف معتقدهم ، لأن" المناظر يقول الشيء الذي لا يعتقده ، ليبني عليه حجته، وليقيم الحجة على خصمه "[1].

ومناظرته كذلك للنمرود الذي طغى وتجبر ، بما آتاه الله من الملك والذي افتتن به وتجرأ وادعى الألوهية ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:258] ، كان يقصد إبراهيم عليه السلام أن الله – عز وجل – هو من بيده الإحياء والإماتة، واعتبر النمرود أن عفوه عن القتل إنما هو إحياء، وأمره بالقتل إنما هو إماتة ، ومن ثم تدرج معه إلى حقيقة أخرى تدمغ باطله فلا يستطيع إنكارها، وهو الإتيان بالشمس من المغرب ، قال الشوكاني: " فلو قال له: ربه الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهل تقدر على ذلك؟ ، لبهت الذي كفر بادئ بدء وفي أول وهلة، ولكنه انتقل معه إلى حجة أخرى تنفيسا لخناقه ، وإرسالا لعنان المناظرة ، فقال: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، لكون هذه الحجة لا تجري فيها المغالطة ، ولا يتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرج مكابرة ومشاغبة " [2] .

ومن وسائل الدفع الداخلي للمجتمع الاسلامي ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي شعيرة مهمة في إصلاح المجتمع ، بل هي أولى أنواع الجهاد ، إذ لن يكون المجتمع قادرا على

---

[1] انظر: السعدي ، عبدالرحمن ، تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن 198/1.

[2] الشوكاني ، محمد ، فتح القدير 318/1.

دفع المعتدين عليه ، مالم يكن ملتزما بالفضائل نابذا للرذائل، حريصا على إقامة العدل وإحقاق الحق ، قال السعدي:" الجهاد نوعان؛ جهاد يقصد به صلاح المسلمين وإصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم ، وجميع شؤونهم الدينية والدنيوية ، وفي تربيتهم العلمية والعملية ، وهذا النوع هو أصل الجهاد وقوامه ، وعليه يتأسس النوع الثاني ، وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين ، من الكفار والمنافقين والملحدين وجميع أعداء الدين ومقاومتهم"[1] ، تكمن أهمية هذه الشعيرة بما يترتب عليها من مصالح تعم المجتمع المسلم، وتجعله يتهيأ لدفع الباطل وأهله ، فلولاها يقول الغزالي: " لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد" [2]، بالإضافة إلى إزالة عوامل الفساد والشر والقضاء عليها أولا بأول ، حتى تسلم الأمة وتسعد ، وتكوين الرأي المسلم الواعي الذي يحرس آداب الأمة وفضائلها وأخلاقها وحقوقها ، ويجعل لها شخصية وسلطانا هو أقوى من القوة وأنفذ من الأنظمة والقوانين [3] .

وفي إهمال هذه الشعيرة سبب لنزول سخط الله –عز وجل – ، وتسليط العدو على المسلمين بسبب إشاعة المنكرات والمفاسد ، فيدفع شرهم بدفع المنكرات وترسيخ الفضائل والمأمورات، فلا يعم الفساد الذي يهوي بالمجتمع إلى منازل سفلى ، قال تعالى:﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود:116] ، بينت الآية الكريمة أن أسباب نجاة المجتمعات هو بالأمر بالمعروف

---

[1] السعدي ، عبدالرحمن بن ناصر، جهاد الأعداء ووجوب التعاون بين المسلمين ، دار ابن القيم للنشر والتوزيع ، 1411هـ- 1991م ، ص 3.

[2] الغزالي، محمد بن محمد ، (ت 505هـ)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت، 306/2.

[3] انظر: الحقيل ، سليمان بن عبد الرحمن (1417هـ – 1996م)، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء الكتاب والسنة ، الطبعة الرابعة ، ص 66.

والنهي عن الإفساد في الأرض، وفي الحديث: "إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه" [1] ، قال طنطاوي : في الآية توبيخ لكل من تقاعس عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فعذاب الاستئصال الذي حل بالظالمين السابقين، كان من أسبابه عدم نهيهم عن الفساد في الأرض [2] ، قال رسول الله ﷺ:«والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » [3] ، وقد يكون هذا العقاب بتمكين وغلبة أهل الباطل عليهم ، إذن فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهاد في سبيل الله ، وفي تركهما سبب للذل والخذلان والهلاك ونزول العقوبة .

و قال تعالى :﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ ﴾ [المائدة78 :79]، دلت الآية أيضا على أن في ترك هذه الشعيرة مجلبة لسخط الله وغضبه ، كما حصل مع بني إسرائيل ، وبتركها والتفريط فيها نشر للرذائل واختفاء للفضائل ونشر للفساد ، وبذلك ينخفض صوت الحق ويعلو صوت الباطل، قال ابن عاشور:" كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، وذلك أن شأن المناكر أن يبتدئها الواحد أو النفر القليل ، فإذا لم يجدوا من يغير عليهم تزايدوا فيها، ففشت واتبع فيها الدهماء بعضهم بعضا ، حتى تعم وينسى كونها مناكر، فلا يهتدي الناس إلى الإقلاع عنها والتوبة منها فتصيبهم لعنة الله " [4] .

---

[1] ابن حنبل ، أحمد ، مسند الإمام أحمد بن حنبل ، مسند العشرة المبشرين بالجنة ، مسند الخلفاء الراشدين ،حديث رقم (17)، قال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه لمسند أحمد :إسناده صحيح.

[2] انظر : طنطاوي ، محمد ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم 291/7.

[3] الترمذي ، محمد بن عيسى، سنن الترمذي ، كتاب الفتن، باب ماجاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حديث رقم (2169)، حسنه الألباني في صحيح الترغيب برقم (2313) .

[4] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير 293/6.

وإذا كان المجتمع المسلم في عهد الرسول ﷺ والصحابة والتابعين من بعده قد حرص على ممارسة هذه الشعيرة ، فالأمة في هذا العصر أحوج ما تكون لها ، نظرا لانتشار الفساد والظلم وتفريط المسلمين بواجباتهم وحقوق دينهم، والإلتزام بهذه الشعيرة إنما هو بحسب الاستطاعة ، قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1] ، وفي الحديث دلالة قوية على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن كان بالقلب وهي أقل مرتبة ، قال ابن القيم :" إن جنس الجهاد فرض عين إما بالقلب وإما باللسان وإما بالمال وإما باليد، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع " [2] .

وقد أثنى الله –عز وجل – على أهل الحق من هذه الأمة، المتصدين لدفع الباطل وفساده بهذه الشعيرة ، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران:110] ، حيث اقترنت خيرية الأمة بالتزامها منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال البقاعي: " بين وجه الخيرية بما لم يحصل مجموعة لغيرهم على ما هم عليه من المكنة بقوله: {تأمرون} أي على سبيل التجدد والاستمرار {بالمعروف} أي كل ما عرفه الشرع وأجازه ، {وتنهون عن المنكر} وهو ما خالف ذلك، ولو وصل الأمر إلى القتال" [3] ، وتقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله ، في الآية الكريمة مع عظم مرتبة الإيمان بالله ، وأنها مقدمة على غيرها من ثوابت وأصول العقيدة ، إنما للدلالة على أهمية هذه الشعيرة في ذاتها، فقد قدمت على

---

[1] مسلم ، أبو الحسن مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم ، كتاب الإيمان، باب بيان أن النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ، حديث رقم (49).

[2] ابن القيم ، محمد ، زاد المعاد في هدي خير العباد 64/3.

[3] البقاعي ، إبراهيم ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور 135/2.

الركن الأعظم ، وأن هذا الدين بعقائده وشرائعه لن يرسخ في الأرض إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1].

وينبغي على من يقوم بالدفع بوسيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يكون ملماً بمسائل الدين والثقافة الشرعية اللازمة ، التي تمكنه من دفع شبهات أهل الباطل ، ويجب أن يتسلح بالقرآن الكريم والسنة النبوية ، فلا يجدوا عليه ثغرة ينفذوا منها ، لتلبيس الحق لبوس الباطل وإظهار باطلهم بصورة الحق ، " قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات:173] فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان، كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان، وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح، وقد من الله تعالى علينا بكتابه الذي جعله تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان:33] " [2].

لقد جاهد رسول الله ﷺ في سبيل الله فخاض جميع الميادين، سواء بدفع بالبيان أو بالسنان ، في وجه الكافر والمنافق سواء في حالة الضعف بمكة ، أو القوة بالمدينة بعد الهجرة، قال ابن القيم : " أمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه، وقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان51 :52] ، فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة:73]، فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد

---

[1] انظر: قطب، محمد ،لا يأتون بمثله ص131.

[2] ابن عبدالوهاب، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان، (ت1206هـ) كشف الشبهات، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية ،الطبعة الأولى،1418هـ ، ص13.

خواص الأمة وورثة الرسل " [1]، يتوجب على المجتمع المسلم القيام بالجهاد الداخلي ، لضمان تماسك الجبهة الداخلية بدفع ضرر المنافقين ، ليتمكنوا من دفع العدو الظاهر والخارجي .

المطلب الثاني: الدفع بالسنان

القتال في سبيل الله من أعظم الأعمال والقربات إليه تعالى ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أفضل؟ ، قال:(إيمان بالله، قال: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قال: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور) [2]، فالجهاد من أفضل الأعمال ويأتي بعد الإيمان بالله ، وهو ذروة سنام الإسلام، وتكمن أهميته وقدسيته في كونه وسيلة لإعلاء كلمة الله –عز وجل –، ولإظهار شرعه وتمكينه في البلاد ، ولهداية العباد إلى الإسلام وحماية الدعوة ، وتحقيق العبودية لله ، ودفع بغي الباغين وضرر المفسدين في الأرض، وحفظ الحقوق وإرساء قيم العدالة، فلم يشرع من أجل الاستعلاء على الناس واستعبادهم وهضم حقوقهم، " بسببه تقوى ركائز الدعوة الإسلامية ، وينشط أهلها ، وتتعمق في الأرض جذورها ، وهو الذي يجعل أعداء الحق يخضعون لسلطان الله ، فيتركون المسلمين يؤدون عباداتهم ويقيمون دولتهم ، وينشطون في دعوة الآخرين إلى الله ورسوله ونحن نعلم جميعا ، بأن دولة الإسلام في عهد مؤسسها الأول محمد بن عبدالله ﷺ لم تقم ولم يخضع لها الكفر وأهله ، إلا عندما ارتفعت راية الجهاد عندما فرضه الله عليهم، فمنزلته عند الله لا تقدر بقدر " [3]، وقد قام بهذا الدفع على مر التاريخ الأنبياء والمصلحون ، الذين ينشدون نصرة الحق ودحر الباطل ، ومنهم الصدر الأول لهذه

---

[1] ابن القيم ، محمد ، زاد المعاد إلى هدي خير العباد 5/3.

[2] مسلم ، أبو الحسن مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم ، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ،حديث رقم (83).

[3] الجعوان، محمد ، القتال في الإسلام أحكامه وتشريعاته دراسة مقارنة ص45.

الأمة ، الذين سطروا تاريخاً مجيداً في الدفع بالسنان يقتفي أثره من جاء بعدهم ، ففتحوا الأمصار، ونشروا رسالة الحق في البلاد وبين العباد .

فرض القتال في الإسلام بالرغم من كونه شاق على الأنفس قال تعالى :﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:216] ، قال ابن كثير: " وهو كره لكم أي شديد عليكم ومشقة وهو كذلك، فإنه إما أن يقتل أو يجرح مع مشقة السفر ومجالدة الأعداء" [1] ، إلا أن فرضيته قد اشتملت على أهداف وغايات نبيلة ، فلم يفرض من أجل العصبيات والسيطرة والاستحواذ على الشعوب ومقدراتها، " إن القتال في الإسلام يأتي عندما لا يكون هناك بديل عنه، فهو وسيلة للمسلمين ليقيموا دولة الإسلام ، وينشروا العدل والسلام ، ولا ضير عليهم أن يحملوا السلاح من أجل أهداف نبيلة، ومقاصد سامية فحربهم حرب عادلة " [2] .

أسمى وأولى غايات الدفع بالقتال ، درء الفتنة في الدين وما يترتب على ذلك، ذكرها الله – عز وجل– في قوله:﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:193] ، والجهاد نوعان جهاد دفع وجهاد طلب، وجهاد الدفع أوجب ، قال ابن تيمية :" أما قتال الدفع فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين فواجب إجماعاً، فالعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا ، لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه، فلا يشترط له شرط بل يدفع بحسب الإمكان ، وقد نص على ذلك العلماء أصحابنا وغيرهم ، فيجب التفريق بين دفع الصائل الظالم

---

[1] ابن كثير ، إسماعيل ، تفسير القرآن العظيم 1/ 573 .

[2] انظر : الجعوان، محمد ، القتال في الإسلام أحكامه وتشريعاته دراسة مقارنة ص91.

الكافر وبين طلبه في بلاده "[1] ، وللجهاد صور متعددة ، فإما بالقلب أو باللسان أو باليد ، وكلا بحسب الاستطاعة ، " والجهاد منه ما هو باليد ومنه ما هو بالقلب، والدعوة والحجة واللسان والرأي والتدبير والصناعة فيجب بغاية ما يمكنه، ويجب على القعدة لعذر أن يخلفوا الغزاة في أهليهم ومالهم بخير" [2] ، فالقتال في سبيل الله والإعداد له، واجب على كل أفراد المجتمع الإسلامي ، كل بحسب إمكاناته للمساهمة ، حتى المتخلفون عن الجهاد لعذر يتوجب عليهم أن يخلفوا أسر المجاهدين ويقوموا برعايتهم وتوفير احتياجاتهم .

وقد رغب الله –عز وجل– المسلمين بالقتال ودفع أهل الباطل، فوعد المجاهدين منهم بأعلى المنازل في الجنة ، وبأن لهم الرفعة والعلو في الدنيا والآخرة، قال تعالى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة:111] ، قال الطبري :" وعدهم الجنة جل ثناؤه، وعدا عليه حقا أن يوفي لهم به، في كتبه المنزلة التوراة والإنجيل والقرآن، إذا هم وفوا بما عاهدوا الله، فقاتلوا في سبيله ونصرة دينه أعداءه، فقتلوا وقتلوا "[3]، بل جعل الله –عز وجل– أهل الجهاد في مرتبة أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، قال تعالى : ﴿ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة:19] ، قال ابن القيم :" نفى التسوية بين المجاهدين وعمار المسجد الحرام مع أنواع العبادة، مع ثنائه

---

[1] ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت 728هـ) ، الاختيارات الفقهية (مطبوع ضمن الفتاوى الكبرى المجلد الرابع)، (المحقق: علي بن محمد بن عباس) دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1397هـ/1978م، ص608.

[2] المصدر السابق.

[3] الطبري ، محمد ، جامع البيان 498/14.

على عماره بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة:18] " [1] .

ويتطلب القتال في سبيل الله الإعداد المنظم والمخطط له من عدة نواحي ، كالإعداد الروحي بتهيئة النفوس كي" تعلم أن مدى انتصارها وتفوقها على الأعداء ، مرتبط تماما بمقدار قوة الدفع الإيماني في نفوسها ، وأن الرتب والجوائز التي ستوزع على المتفوقين في القتال ، سوف تكون يوم القيامة زيادة على ما يحصل من الارتياح النفسي والتقدير الاجتماعي في الدنيا"[2] ، وتهيئتها أيضا يكون بتهذيبها من الذنوب والمعاصي وانصياعها لأوامر الله عز وجل ورسوله عليه الصلاة والسلام، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:152] ، فَقَدَ المسلمون النصر يوم أحد لمخالفة الرماة توجيهات الرسول ﷺ ، قال الرازي: الفائدة في قوله: (مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ) ، هو التنبيه على عظم المخالفة، لأنهم لما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد، كان من حقهم أن يمتنعوا عن مخالفة أمر رسوله عليه الصلاة والسلام ، فلما أقدموا عليها لا جرم سلبهم الله ذلك الإكرام [3] .

---

[1] انظر: ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ، (ت 751هـ) ، طريق الهجرتين وباب السعادتين، ، دار السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية ، 1394هـ، 356.

[2] الجعوان ، محمد ، القتال في الإسلام أحكامه وتشريعاته دراسة مقارنة ص70.

[3] انظر: الرازي، محمد ، مفاتيح الغيب ، 388/9، بتصرف يسير.

بالإضافة إلى الإعداد المادي بتجهيز الجيوش للمقاومة بالعدة والسلاح ، قال تعالى:﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال:60] ، قال ابن كثير:" أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة" [1] ، قال سيد قطب: لا بد للحق من قوة تحميه من البطش، وتقي أهله من الفتنة ، ليكافح قوى الطغيان والشر والباطل، اعتمادا على قوة الإيمان في نفوس أهل الحق وتغلغل الحق في الفطر، فالقوة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس، لأن الباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان، إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول، ولا يكفي الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه، بل لا بد من القوة التي تحميه وتدفع عنه [2]، وهذا التجهيز والإعداد بحد ذاته إنما هو دفع بترهيب أهل الباطل وإضعاف معنوياتهم، "هذا العنصر أساسي قوي في الوصول إلى نتيجة للفوز والنصر وهو القوة الظاهرة التي تتكون من الرجال وأنواع السلاح ، فإعداد الرجال وتهيئتهم أمر يستلزم وجود السلاح الذي يفتك بالأعداء، ويقتلهم ويمكن المسلمون من الوصول إلى أهدافهم، ولقد حث الإسلام على الإعداد بكل ما تعنيه كلمة الإعداد من معنى ليكون المسلمون قوة ترهب عدو الله "[3] .

---

[1] ابن كثير ، إسماعيل ، تفسير القرآن العظيم 80/4.

[2] انظر : قطب ، سيد ، في ظلال القرآن 2424/4 .

[3] الجعوان ، محمد ، القتال في الإسلام أحكامه وتشريعاته دراسة مقارنة ص77.

الخاتمة

وفي ختام هذه الدراسة ومحاولة دراسة الآيات التي تدور حول مفهوم الدفع والتدافع في القرآن الكريم، والاطلاع على أقوال العلماء والمفسرين ، توصلت الباحثة إلى جملة من النتائج وهي كالآتي:

1- الدفع غريزة أودعها الله –عز وجل– في جميع مخلوقاته ، وبها تنتفع، فلولاها لأهلك القوي الضعيف، وقد تطغى تلبيةً لشهوات ونوازع داخلية في الإنسان نحو الإشباع والإفراط، ليصل إلى الإضرار بالغير، مما ترتب عليه التدافع فيما بينهم.

2- الدفع سلوك بشري طبيعي في المجتمعات الإنسانية ، ونتيجة حتمية لاجتماع البشر الفطري واختلاف عقائدهم وطبائعهم ، ومظهر من مظاهر الحياة، وعلامة على الحيوية والنمو والاستمرار، فالصراع بين الأطراف المتدافعة لا يتوقف إلا بتوقف الحياة ، ولو شاء الله – عز وجل– لجعلهم أمة واحدة .

3- الدفع في الإسلام له مفهوم يخالف مفاهيم الأمم الأخرى، التي ترى في الصراع أن البقاء للأقوى، والسعي لإلغاء الآخرين بشتى الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، أما الإسلام فيؤصل لصراع تتطلبه المصالح، وتحكمه القيم، وتنظمه الشريعة.

4- بالدفع يتحقق الحفاظ على مصالح الأمة ، ومن أعظم ثمراته رفع راية التوحيد وتأمين الدعوة إليه، فلا يخشى مسلم من إظهار دينه أو ممارسة شعائره، وبه تحفظ الأرض من الفساد وانتشار المظالم، وتعطيل المصالح وضياع الحقوق، وبه يتحقق الاستخلاف والتمكين .

5- من ثمرات الدفع حفظ الأديان والمعتقدات الأخرى ودور العبادة ، وفي ذلك دلالة واضحة على تسامح الإسلام مع الآخرين ، وتأكيداً لمبدأ لا إكراه في الدين.

6- من ثمرات الدفع تصفية المجتمع الإسلامي من أكداره وشوائبه، به تتمايز صفوف

المسلمين من العدو الداخلي، وتتمحص القلوب، فيظهر المخلص من المنافق عيانا أمام الجميع، وبه يصطفى الله – عز وجل – من يستحق الشهادة ، ممن صدق معه، ووافق قوله عمله في الدفاع عن دينه وإعلاء كلمته.

7- إن الصراع الدائر بين الحق والباطل، يرتبط ارتباطا وثيقا بمجموعة من القواعد ، التي تؤصل لفهم طبيعة هذا الدفع ، ليستفيد منها أهل الحق في دفعهم للباطل وأهله، وقد أشار إليها القرآن الكريم في مواضع متفرقة، منها ما يتعلق بالتدافع بين الحق والباطل على وجه العموم، ومنها يتعلق بالحق وأهله، أو الباطل وأهله على وجه الخصوص.

8- إن الصراع بين الحق والباطل صراع حتمي لابد منه، إذ لا تقوم لأحدهما قائمة مالم يضعف ويطرد الآخر من التأثير في واقع الحياة، وإن استبطأ أحدهما عن ملاحقة الآخر، فإن الآخر لن يدخر جهدا في دفعه و إزالته ، فالباطل في سعي حثيث لإقصاء الحق بكافة الوسائل والقضاء على أهله، فلا ينبغي أن يغفل أهل الحق عن عدوهم، فهم في حالة ترقب دائم للانقضاض على الحق وأهله.

9- لا ينفك أهل الباطل من الكيد للحق والمكر بأهله، وفي المقابل تكفل الله بحفظ أوليائه، بإعلاء الحق وإظهار أهله، وينقلب على الماكرين مكرهم، ليذوقوا وبال ذلك في الدنيا والآخرة.

10- ضعف الباطل وهشاشته و تماسك الحق وقوته ، ومهما تعاظم فإلى زوال، فقد ضرب القرآن الكريم الأمثال لتصوير قوة الحق أمام ضعف الباطل، وفي ذلك بشارة لأهل الحق لئلا يداخلهم اليأس، وترغيبا لهم في دفع الباطل مهما بلغ من القوة والعظمة .

11- مهما طال أمد الصراع فالعاقبة لأولياء الله ، والذي لا يتخلى عنهم ولا يسلمهم لأعدائهم ، وإن تأخرت النصرة ، فمن سنته تعالى إمهال الظالمين واستدراجهم.

12- رعاية أكابر المجتمع للباطل وتغذيته، سنة اجتماعية أشار إليها القرآن الكريم، وخص هذه

الفئة بالذكر لما كان بأيديهم من رئاسة وسلطة على الناس، وقدرتهم على الإفساد والتحايل لامتلاكهم سلطة الجاه والمال ، والتي من أجلها يسعون لدفع الحق بكافة الوسائل لاستبقائها بأيديهم .

13- من السنن الاجتماعية في المجتمعات الإنسانية ، أن الأفراد يميل كل منهم إلى من هو على شاكلته ، ويتناصرون فيما بينهم على من يخالفهم ؛ لذا نجد مساندة أهل الباطل لبعضهم، واتحادهم في سبيل إضعاف الحق وإقصاء أهله ، بالرغم من تنوع معتقداتهم واتجاهاتهم وأهدافهم.

14- من وسائل محاربة أهل الباطل للحق وأهله، تنفير الناس من الحق بتلبيسه لبوس الباطل، لإظهاره بصورة الباطل، بإثارة الشبهات وخلط الحق بالباطل أو كتمانه.

15- استخدام أهل الباطل الحرب النفسية ببث الفتن والشائعات والأراجيف، لإضعاف عزائم أهل الحق وترهيبهم وتفريق جماعتهم، وثنيهم عن المضي قدما في دفع الباطل.

16- يتحقق دفع الله – عز وجل – عن أوليائه أتباع الحق ، بأن يهيئ لهم جنوداً وأسباباً، يدفع بها الباطل وأهله ، ووسائل المدافعة التي جاءت في القرآن الكريم ؛ الدفع المباشر بالتأييد الإلهي ، وذلك بأن يتولى الله- عز وجل- الدفع المباشر عنهم، أو الدفع غير المباشر بأخذ أهل الحق للأسباب في دفع الباطل .

17- التأييد الإلهي في دفع الباطل ونجاة أوليائه يكون بأحد أمرين: تسليط العذاب الدنيوي واستئصال أهل الباطل، وتثبيت أهل الحق بصرف كيد الباطل ومكر أهله، وكلما كان العبد لله – عز وجل – أقرب كانت دفع الله عنه أسرع وأقوى.

18- دفع أهل الحق للباطل بمباشرة الأسباب يكون بالجهاد وهو بأحد الأمرين: الجهاد بالكلمة والبيان ، أو الجهاد بالقتال والسنان .

19- بلغت أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بأن جاء مقدماً في القرآن الكريم على الإيمان بالله ، بالرغم من كونه الركن الأعظم في الإسلام ، للدلالة على أهميته ودوره في انتشار هذا الدين، وفي إصلاح المجتمع داخليا ليكون قادراً على دفع المعتدين .

أما التوصيات فتتلخص بالآتي:

1- أرجو من مؤسسات الدولة المختصة في إدارة العملية التربوية والتعليمية والإعلامية، أن تعتني بدراسة طبيعة الصراع بين الحق والباطل، وفهم المظاهر المحيطة به ، وكيفية الإستفادة العملية من هذه الدراسة في ميدان صراع الأمة الإسلامية مع غيرها، لتنشئة جيل واعي يساهم في مشاريع نهضوية ، تنتفع بها الأمة وترتقي إلى مكانتها بين بقية الأمم .

2- أوصي طلبة العلم بدراسة هذه السنة الإلهية ، في تفسير التاريخ تفسيراً اسلامياً في مقابل التفسير المادي الإلحادي للتاريخ ، بالإضافة إلى دراسة متى تتدخل القوة الإلهية مباشرة في نصرة الحق وإزهاق الباطل، كما أهلك قوم نوح وقوم عاد عاد وثمود وأغرق فرعون ، ومتى لا تتدخل مباشرة ويترك تعالى أوليائه لمباشرة الأسباب ، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد:4]

3- ينبغي تكثيف الجهود كلٌ بحسب قدرته ، لبيان مفهوم الدفع في الإسلام ، الذي يرفض فكرة صراع البقاء للأقوى ، وإلغاء الآخرين دون مراعاة أدني القيم الإنسانية ، وهذه الفكرة هي التي يؤمن بها الآخرون وفي الوقت ذاته يتهم بها الإسلام ، ويواجه بالتشويه الإعلامي لمفهوم القتال في الإسلام وغاياته.

4- أن يساهم جميع أفراد المجتمع بهذا الدفع ، كلٌ بحسب قدرته وإمكانياته ، فهو ليس حكرا على العمل العسكري .

قائمة المصادر والمراجع

الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، (ت 1270هـ)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: 16 ، (المحقق: علي عبد الباري عطية) ، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1415 هـ.

ادريس، جعفر الشيخ ، (1433هـ)، صراع الحضارات بين عولمة غربية وبعث إسلامي،الناشر مركز البحوث والدراسات ، **مجلة البيان**، عدد 144، الرياض.

الألباني، أبو عبدالرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح،(1415هـ/1995م)، **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، الطبعة الأولى ،عدد الأجزاء: 6، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.

الألباني، أبو عبدالرحمن، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح ، (2000م)، **صحيح الترغيب والترهيب**، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء:3، الرياض، مكتَبة المعارف للنشر والتوزيع.

البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، (ت 256هـ)، **الجامع المسند الصحيح المختصر / صحيح البخاري**، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: 9 ،(المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر)، دار طوق النجاة، 1422هـ.

البدر، عبدالرزاق بن عبدالمحسن ، (1425هـ) **القطوف الجياد من حكم وأحكام الجهاد**، الطبعة الأولى ، الرياض، دار المغني.

البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، (ت 510هـ)، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: 5 ، (المحقق: عبد الرزاق المهدي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ.

أبو البقاء، أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، (ت 1094هـ)، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، ب.ط ، عدد الأجزاء:1، (المحقق:عدنان درويش– محمد المصري)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1419هـ/ 1998م.

البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن ، (ت 885هـ)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: 8، (تحقيق: عبدالرزاق غالب المهدي) ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1415هـ/ 1995م.

البوطي، محمد سعيد رمضان ، (1994م)، **فقه السيرة**، ب.ط ،عدد الأجزاء: 1، بيروت: دار الفكر.

البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (ت 685هـ)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، الطبعة الأولى ، عدد الأجزاء: 5، (المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1418 هـ.

الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، (ت 279هـ)، **سنن الترمذي** ، الطبعة الثانية، عدد الأجزاء: 5، (تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر،1395هـ/ 1975م.

التويجري، عبدالعزيز بن عثمان، **صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي**، ب.ط، عدد الأجزاء:1، السعودية ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم ، (ت 728هـ) ، **الاختيارات الفقهية** ، ب.ط ، عدد الأجزاء: 1، (المحقق: علي بن محمد بن عباس) ، دار المعرفة ، بيروت، لبنان، 1397هـ/1978م.

ابن تيمية ،أحمد بن عبدالحليم،(ت 728هـ)، **بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية**، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: 10، (تحقيق مجموعة من المحققين)، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1426هـ.

ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم،(ت 728هـ)،**الرد على البكري**، الطبعة الأولى ، عدد الأجزاء: 2، (تحقيق :محمد علي عجال) ، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة ، 1417هـ.

ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم ، (ت 728هـ)، **مجموع الفتاوي**، ب.ط ، عدد الأجزاء: 35، (المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم)، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1416هـ/1995م.

الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف ، (ت 875هـ)، **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: 5، (المحقق: محمد علي معوض ، عادل أحمد عبد الموجود) ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، 1418 هـ .

الجعوان، محمد بن ناصر بن عبدالرحمن ،(1981م)، **القتال في الإسلام أحكامه وتشريعاته دراسة مقارنة** ، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء:1.

جلال الدين ، محمد بن أحمد المحلي ، (ت 864هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، (ت 911هـ)، **تفسير الجلالين**، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: 1، دار الحديث، القاهرة.

الجليل، عبدالعزيز ناصر ، (2005م) ، **أفلا تتفكرون** ، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء:1، الرياض، دار طيبة للنشر والتوزيع.

ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ، (ت 597هـ)، **زاد المسير في علم التفسير**، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: 4، (المحقق: عبد الرزاق المهدي)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1422 هـ.

الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد ،(ت 393هـ)، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، الطبعة الرابعة ، عدد الأجزاء: 6، (تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار) دار العلم للملايين، بيروت، 1407 هـ - 1987 م.

الحاكم ، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه النيسابوري ، (ت 405هـ)، **المستدرك على الصحيحين**، الطبعة الأولى ، عدد الأجزاء: 4، (تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا)، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1411 – 1990.

ابن حجر ، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ،(ت 852هـ) ، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ب.ط ، عدد الأجزاء:13، (تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبدالباقي، محب الدين الخطيب، عبدالعزيز بن باز) ، دار المعرفة ، بيروت، 1379هـ.

الحقيل، سليمان بن عبد الرحمن ، (1417هـ - 1996م)، **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء الكتاب والسنة**، الطبعة الرابعة، عدد الأجزاء:1.

ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، (ت 241هـ)، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء:45، (المحقق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي) ، مؤسسة الرسالة ، 1421 هـ / 2001 م.

أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي ، (ت 745هـ)، **البحر المحيط في التفسير**، ب.ط ، عدد الأجزاء:10، (المحقق: صدقي محمد جميل) ، دار الفكر، بيروت، 1420 هـ.

الخطيب ، شريف الشيخ صالح أحمد، (2004م)، **السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك**، الطبعة الأولى ،عدد الأجزاء:2، المملكة العربية السعودية، مكتبة الرشد.

الخطيب، عبد الكريم يونس، **التفسير القرآني للقرآن** ، ب.ط، عدد الأجزاء:1، القاهرة، دار الفكر العربي.

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد، (ت 808هـ)، **مقدمة ابن خلدون**، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: 1، (تحقيق عبدالله محمد الدرويش)، دمشق، دار يعرب، 1425هـ/2004م.

الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين، (ت 606هـ) ، **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)** ، الطبعة الثالثة ، عدد الأجزاء:32، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 1420 هـ.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت 502هـ)، **المفردات في غريب القرآن**، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: 1، (المحقق: صفوان عدنان الداودي) دار القلم، الدار الشامية ، دمشق ، بيروت، 1412 هـ.

رضا ، محمد رشيد بن علي ، (1990م)، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**،ب.ط، عدد الأجزاء:12، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

الزجاج، إبراهيم بن السري بن سهل، (ت 311هـ) ، **معاني القرآن وإعرابه**، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء:5، عالم الكتب، بيروت ، 1408 هـ / 1988 م.

الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، (ت 538هـ)، **أساس البلاغة**، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: 2، (تحقيق: محمد باسل عيون السود) ، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1419 هـ / 1998 م.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، (ت 538هـ)، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل** ، الطبعة الثالثة ، عدد الأجزاء:4، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1407 هـ .

زيدان، عبدالكريم، (2013م)، **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، الطبعة الثالثة، عدد الأجزاء:1، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة.

الزين، سميح عاطف ، (1991م)، **معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنة**، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء:2 ، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

السعدي ، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله ، (1420هـ /-2000 م.) ، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، الطبعة الأولى ، عدد الأجزاء:1، (المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق)، مؤسسة الرسالة .

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله ، (1422هـ) ، **تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن** ، الطبعة الأولى ، عدد الاجزاء:1، المملكة العربية السعودية، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد .

السعدي ، عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله ، (1411هـ) ، **جهاد الأعداء ووجوب التعاون بين المسلمين** ، ب.ط ، عدد الاجزاء:1، دار ابن القيم للنشر والتوزيع .

أبو السعود، العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ، (ت 982هـ)، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، ب.ط، عدد الأجزاء:9، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن سيده ، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ، (ت 458هـ)، **المخصص** ، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: 5، (المحقق: خليل إبراهم جفال) ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1417هـ / 1996م.

الشبانة، عبدالله بن حمد ، (1417هـ/ 1996م)، **المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية**، الطبعة الثانية، عدد الاجزاء:1، المملكة العربية السعودية، دار طيبة للنشر والتوزيع.

الشعراوي ، محمد متولي ، **تفسير الشعراوي الخواطر**، ب.ط، عدد الاجزاء:20، مطابع أخبار اليوم.

الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني ، (1415هـ/1995م) ، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن** ،ب.ط ، عدد الاجزاء: 9، بيروت ، لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله ، (ت 1250هـ) ، **فتح القدير**، الطبعة الأولى ، عدد الأجزاء:6، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق ، بيروت ، 1414 هـ.

الصدر، محمد باقر، (1409هـ/1989م)، **السنن التاريخية في القرآن** ، الطبعة الأولى ، عدد الاجزاء:1، (صياغة وترتيب: محمد جعفر شمس الدين)، دار التعارف للمطبوعات.

طبارة ، عفيف عبدالفتاح، (1983)، **روح الدين الإسلامي**، الطبعة الثالثة والعشرون ، عدد الاجزاء:1، بيروت، لبنان، دار العلم للملايين .

الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الآملي ،(ت 310هـ) ، **تاريخ الأمم والملوك** ، الطبعة الأولى ، عدد الأجزاء:5، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1407هـ.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الآملي ، (ت 310هـ)، **جامع البيان في تأويل القرآن**، الطبعة الأولى ، عدد الأجزاء: 24، (المحقق: أحمد محمد شاكر)،مؤسسة الرسالة، 1420 هـ - 2000 م.

طنطاوي، محمد سيد،(1997م) **التفسير الوسيط للقرآن الكريم** ، الطبعة الأولى ، عدد الاجزاء: 15، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

ابن عادل ، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي الحنبلي الدمشقي النعماني ، (ت 775هـ)، **اللباب في علوم الكتاب** ، الطبعة الأولى ، عدد الأجزاء:20، (المحقق: عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد معوض) دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، 1419 هـ /1998م.

ابن عاشور ، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر،(1984م)، **التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»** ، ب.ط ، عدد الاجزاء:30، تونس، الدار التونسية للنشر.

عبدالجواد، أحمد رأفت، **مبادئ علم الاجتماع** ، ب.ط، عدد الاجزاء:1، القاهرة ، مكتبة نهضة الشرق.

ابن عبدالوهاب، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان، (ت1206هـ) ، **كشف الشبهات**، الطبعة الأولى، عدد الاجزاء:1، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية ، 1418هـ.

ابن عطية ، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي ، (ت 542هـ) ،**المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء: 6، (المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد) ، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1422 هـ.

عمارة، محمد ،(2010) ، **الإسلام في مواجهة التحديات**، الطبعة الثالثة ، عدد الاجزاء:1، القاهرة، دار نهضة مصر للنشر.

عمارة، محمد ،(1998)،**الحضارات العالمية تدافع أم صراع**، الطبعة الأولى،عدد الاجزاء:1 ، القاهرة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

الغزالي، أبو محمد بن محمد ، (ت 505هـ)، **إحياء علوم الدين**، ب.ط، عدد الأجزاء:4، دار المعرفة ، بيروت.

الغزالي، محمد ، (1412هـ/1992م)، **كيف نتعامل مع القرآن**، (دراسة: عمر عبيد حسنة) ، الطبعة الثانية ، عدد الاجزاء:1، المنصورة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع.

ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، (ت 395هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، ب.ط، عدد الأجزاء: 6، (المحقق: عبد السلام محمد هارون) ، دار الفكر، 1399هـ / 1979م.

الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم ، (ت 170هـ)، **العين** ، ب.ط، عدد الأجزاء:8، (المحقق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي)، دار ومكتبة الهلال.

الفيروزآبادى ، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب ،(ت 817هـ)، **القاموس المحيط**، الطبعة الثامنة ، عدد الأجزاء: 1، (تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي) ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1426هـ/ 2005 م.

القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم ،(ت1332هـ)، **محاسن التأويل**، الطبعة الأولى عدد الاجزاء:9،(المحقق: محمد باسل عيون السود)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418 هـ.

ابن قدامة، أحمد بن عبدالرحمن ابن قدامة المقدسي، (ت689هـ)، **مختصر منهاج القاصدين** ، ب.ط، عدد الأجزاء:1، مكتبة دار البيان ، دمشق، 1398هـ/ 1978م.

القديدي، أحمد، (1415هـ/1995م)،**الإسلام وصراع الحضارات**، الطبعة الأولى عدد الاجزاء:1، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي ،(ت671هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، الطبعة الثانية ، عدد الأجزاء:20، (تحقيق أحمد البردوني،إبراهيم أطفيش)، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1384هـ – 1964 م.

قطب، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي ، (ت 1412هـ) ، **في ظلال القرآن**، الطبعة السابعة عشر عدد الاجزاء:6، القاهرة، دار الشروق.

قطب، محمد ،(1418هـ/ 1998م)، **حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية**، الطبعة الأولى، عدد الاجزاء:1، القاهرة، دار الشروق.

قطب، محمد، **حول التفسير الإسلامي للتاريخ**، ب.ط، عدد الاجزاء:1، مطابع المجموعة الإعلامية .

قطب، محمد ،(1422هـ/2002م)، **لا يأتون بمثله**،الطبعة الأولى ، عدد الاجزاء:1، القاهرة، دار الشروق.

قطب، محمد ،(1418هـ/1997م)، **مفاهيم ينبغي أن تصحح**، الطبعة التاسعة ، عدد الاجزاء:1، القاهرة، دار الشروق.

ابن القيم ، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، (ت751هـ) ، **تفسير القرآن الكريم (التفسير القيم)**، الطبعة الأولى ، عدد الأجزاء:1، (المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف إبراهيم رمضان)، دار ومكتبة الهلال ، بيروت، 1410 هـ.

ابن القيم ، محمد بن أبي بكربن أيوب بن سعد،(ت751هـ)، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، الطبعة السابعة والعشرون ، عدد الأجزاء:5، مؤسسة الرسالة– بيروت، مكتبة المنار الإسلامية– الكويت ،1415هـ/1994م.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد،(ت 751هـ) ، **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، الطبعة الثانية، عدد الأجزاء:1، دار السلفية، القاهرة، مصر ، 1394هـ.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي ، (ت 774هـ) ، **تفسير القرآن العظيم** ، الطبعة الثانية، عدد الأجزاء:8،(المحقق: سامي بن محمد سلامة)، دار طيبة للنشر والتوزيع ،1420هـ- 1999 م.

ابن مجاهد، أحمد بن موسى بن العباس التميمي، (ت 324هـ)،**السبعة في القراءات**، الطبعة الثانية ، عدد الأجزاء: 1، (المحقق: شوقي ضيف)، دار المعارف، مصر ، 1400هـ.

المخلف، محمد بن مخلف بن صالح،(1413هـ/1993م)، **الحرب النفسية في صدر الإسلام (العهد المدني)** ، الطبعة الثانية ، عدد الاجزاء:1، الرياض، دار عالم الكتب للطباعة والنشر.

المراغي ، أحمد بن مصطفى ، (1365هـ/1946م) ،**تفسير المراغي** ، الطبعة الأولى ، عدد الاجزاء:30، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي.

مرتضى الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، (ت 1205هـ)، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ب.ط، عدد الأجزاء: 40، (المحقق: مجموعة من المحققين) ، دار الهداية.

مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (ت 261هـ)، **صحيح مسلم** ، ب.ط، عدد الأجزاء: 5، (المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

مصطفى، إبراهيم وآخرون، **المعجم الوسيط**، ب.ط، عدد الاجزاء:2، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، دار الدعوة.

ابن منظور ، أبو الفضل محمد بن مكرم بن على ، (ت 711هـ)، **لسان العرب**، الطبعة الثالثة، عدد الأجزاء:15، دار صادر، بيروت، 1414 هـ.

النسفي، عبدالله بن أحمد بن محمود ،(ت710هـ)، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، الطبعة الأولى ، عدد الأجزاء: 3، (تحقيق: يوسف علي بديوي)، دار الكلم الطيب، بيروت ، 1419هـ/ 1998م.

الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد ، (ت 468هـ) ، **أسباب نزول القرآن** ، الطبعة الثانية ، عدد الأجزاء: 1، (المحقق : عصام بن عبدالمحسن الحميدان)، دار الإصلاح، الدمام، 1412هـ/ 1992م.

الواعي، توفيق يوسف، (1425هـ/2004م)، **الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية**، الطبعة الثانية ، عدد الاجزاء:2، الكويت، مكتبة المنار الإسلامية .

الرسائل العلمية :

الزهراني، خالد بن موسى بن غرم الله الحسني،(1428هـ/2007م) ، **سنة التدافع في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية .

STRUGGLE IN THE HOLY QUR'AN

A THEMATIC STUDY

By

Haya Zayed Mazyed Al Mutairi

Supervisor

Dr. Jihad Mohammad Faisal Al Nusairat

ABSTRACT

The current study addresses the concept of Repelling in the Holy Quran through the principles of the thematic study. The current study aimed at identifying the reality of Repelling in the Holy Quran in order to extract its benefits, means and rules which root the understanding of the nature of Repelling between “Truth” and “Falsehood”, as the problem of the current study is summarized in answering the following question: “What is Repelling from the point of view of the Holy Quran?”.Accordingly, the current study consisted of an introduction and three chapters. In the introduction, the researcher has addressed the concept of Repelling in terms of the linguistic meaning and idiomatically, then addressed the importance of Repelling and the necessary of its application as a shari requirement aimed at nation reform and earth’s cultivation. Chapter (I) has addressed the reality of Repelling being a drive instilled in human being nature in order to protect him against harm and destruction. Repelling is a Law of Allah that must be understood but not to be opposed .The researcher has also addressed the Quranic concept of Repelling which differs from the meaning of this concept among other nations. Finally, the researcher has addressed the fruits of Repelling between the believers and non-believers. Chapter (II) has addressed the rules of Repelling in the Holy Quran in three parts; the rules of Repelling between Truth and Falsehood, the rules relating to the truth and believers (truth followers), and the rules relating to the

Falsehood and the non-believers (Falsehood followers). Such rules explain the nature of the conflict between truth followers and falsehood followers, and the importance awareness of the truth followers to understand such rules in order to defend the Truth and defeat the Falsehood followers.

Chapter (III) has addressed the means of Repelling in the Holy Quran, where Allah promised the truth followers to be supported by him. This support came into two forms; The first one the Divine support represented by strengthening the truth followers as Allah promised the truth followers to perish the falsehood followers, and the second form “way” is by “Jihad” and fighting against the falsehood followers.

The current study has concluded a set of results and recommendations, the most important were that Repelling is a natural result of human being which emerges from interests conflict ,as it is also a key manifestation of life that would not end unless the life ends. Also, Islam has regulated this conflict by the Islamic rules and legislation based on the conclusion of the key rules that affect the process of falsehood repelling. Such rules assist in understanding the dimensions of this process in order to challenge and defeat the falsehood followers, whether such rules are general relating to the repelling between the Truth and Falsehood, or special rules relating to the Truth and its followers, as well as other rules relating to the Falsehood and its followers.